دروس الوعظ

خيرُ دروس الوعظ ما كان آية تُبيَّن ، أوحديثا يُفصَّل، أوسنةً عملية من سنن الرسول ﷺ تُشْرحُ للناس كما تقع كسنته ﷺ فى وضوئه وصلاته، وسنته فى قراءة القرآن واستماعه

خير الدروسِ ما وقع من المستمعين موقع الحاجة كأن يكون بيانا لحكم الله فى حادثٍ وقعوا فيه ، أوجوابا لأمرٍ جهلوه وهمُّوا أن يتعرَّفوه ، أودواء لمرضٍ نفسى أو خلقى أحسُّوا بأثره ، وأرادوا التخلص من شره ، أو مانحا هـذا النحو وكما يقولُ علماء البلاغة : ماطابق مقتضى الحال

خير الدروس ماضُرِبَتْ فيه الأمثال ، وبيِّنت الحِكَمَ ، وقُرِّب إلى الناس بما يقع تحت حسِّهم ، وما يكون فى متناوَلِ عقولهم

خيرالدروس ما كان بلغةٍ مفهومة ، وعبارةٍ مُستبينة ، يفهمها جميعُ الحاضرين الجاهلُ منهم وَالعالِم ، العامىّ منهم والخاص

خير الدروس ما سُلِكَ فيـه مسلكُ الخطابة والأتيان إلى النفوسِ من جهةِ المشاعرِ والعواطف ، فانَّ ذلكَ يهزُّ الأعصابَ ، فتوحى إلى الأعضاءِ بالعمل ، والعمل بالنصائح غايةُ الوعاظ ، وأمنية المرشدين

خير الدروس ما تخلَّله نُـكَتٌ ظريفة ، أو حكاياتٌ طريفة ، فان ذلك يروِّح عن النفوس ، ويُزيل ما قد يكونُ ألمَّ بها من سآمة أو ملل

خير الدروس ما تمثَّل فيـه إخلاصُ الواعظ ، فنفسُه متأثرة بما يقول ، ووجهه محمرٌّ لونُه من حرارةِ الموعظةِ فى قلبه ، وانبعاثها عن محضِ نصحه

خير الدروس ما صدر عن معرفة وافيـة ، ومعلوماتٍ واسعة ، فان ذلك أقهر للنفوس ، وأرجى للقبول

خير الدروس ما قُصِد فيه إلى اللب والغاية، دون القشور والمقدمات البعيدة ، والمماحكات السخيفة التى لا صلةَ لها بالقلوب وأعمالها

خير الدروس ما قلت فيه الأسئلةُ والمناقشات أو فُقِدت ، فان وجودَها صارفٌ للناس عن الاستماع ، وقاطعٌ للتأثر والاتعاظ ، وذلك ما يُفوِّتُ على الواعظ غرضَه ، أو يُضعفُ أملَه ، وإن يَكُنِ السؤال قيّما ، والداعى إليه شاملا ، فاجابةٌ بينة حاسمة ، لاتَدَعُ مجالا للأخذ والرد ، أو وعدٌ بالاجابة عقبَ الدرس

خير الدروس ما بُيّن فيه الموضوعُ بيانا شافيا من كل نواحيه ، وجمع فيه بين قوادمِه وخوافيه ، بحيث لا يجد السامعُ موضعا لسؤال أو استفسار ، أو حاجةً إلى استكثار

خيرالدروسِ ما أكبر الواعظَ فى نفوسِ مستمعيه ، من جهة تأثرهم بموعظته ، واعتقادِهم حِرْصَه على مصلحتهم ، والسعى بهم إلى حيث السعادة ، ومجانبةُ الشقاوة ولهذا كان من ألزم الأمور للواعظ ، الابتعاد عن كل نقيصة تحطّ من قدره فى نظر العامة ، بل الابتعاد عما يُسْتهجَنُ فى العرف ، وإن كان لا بأسَ به فى الشرع لأن ملء عيونِهم بهيبتِه ، أدعى لاستماعِ كلمته ، وتنفيذ نصيحته

خير الدروس ما لم تسألْ عليه أجرا ، أو تطلب له عوضاً ، لأن ذلك آية الاخلاصِ فى النصيحة ، وأنك إنما تبغى بعملِك وجه الله « لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عَبُوساً قَمْطَريرا »

خير الدروس ماصدر عن نفسٍ هادئة ، لم تَمْلِكُ الشواغلُ عليها قلبها ، ولم تَحُلْ بينها و بين خالِص رأيها ، وصادقِ نصحها

خير الدروس مااعتصم صاحبُه بالصبر ، وآثر الأناة والحلم ، إذا وجد ما يستفز غضبه ، من عبارة جارحة ، أو سؤال مستنكر ، أوعمل شائن ، فالصبرُ فى هذه المواطنِ أشد أثرا فى النفوس من الكلام الكثير ، واجدى من مكافأة السيئة بمثلها ، أو بما هو أسوأ منها ، فان الثانى ظلم يجب على الواعظ أن يعتزله ، والثانى لا يليق بمقامِ المرشدين « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوةٌ كأنه ولى حميم »

خير الدروس ما حَبَّبَ إليه النفوس ، ووَدَّت الاستزادة منه ساعة تنتهى ، وحرصت على سماع أمثاله ، وإن استنفدت فى سبيلِ ذلك وقتا طويلا أو مالاً كثيرا

خير الدروس ما كان مُلْقِيه مثلا أعلى فى صدق إيمانه ، وكمال أخلاقه ، وحسنِ أعماله ، وعزَّةِ نفسِه « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقْتَدِه »

نماذج فى دروس الوعظ

النموذج الأول فى تفسير الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمدُ لله ربِّ العالمينَ . الرحمنِ الرحيمِ . مالكِ يَوْمِ الدِّينِ . إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نستعينُ . اهدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ . صراط الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين »

* * *

الفاتحة نقرؤها فى كل ركعة من ركعات الصلاة ، فمن العار على المسلم أن يقرأ كلاما لا يفهمهُ ، من العار على المسلم أن يُناجيَ ربَّه بعبارات لا يدركها ، فكان من الواجب عليكم أن تعرفوا معانى الفاتحة . الفاتحة أمُّ القرآن أجمل الله فيها ما فصَّله فى القرآن فاذا قصَّرتم فى معرفة القرآن بالتفصيل فلا تقصروا فى معرفة أمِّه وأصلِه الصلاة إنما يقبلها الله إذا كانت كُلُّها خشوعا وخضوعا له ، إذا كان قلبُ المؤمن حاضراً مع الله ، ولن يخشع المصلى ويَحْضُرَ قلبُهُ إذا كان لا يفهم ما يقول ، لا أحب لكم أن تكونوا كالببَّغاء الذى ينطق بكلمات ولكن لا يُدْرك من أمرها شيئا فان الله فضلكم على سائر الحيوان بالعقول ، والعاقل من يعرف ما يقول ، فاسمعوا تفسيرها وفقكم الله للخير .

أول آية تقولونها « بسم الله الرحمن الرحيم » كل انسان يعمل عملا لا يضمن النجاح فيه إلا إذا وَفقه الله لاتمامه ، و بلوغ الغرضِ منه ، فينبغى للمسلم إذا شرع فى أىِّ عمل من الأعمال أن يذكر الله فى أوَّلِه ، ويَطْلُبَ منه عونهورحمتَه ، رجاء أن يُوفِّقَه لاتمامِه ،وجَنْىِ ثمارِه فيقول « بسم اللهالرحمن الرحيم » فى أوله كما قالها ربنا فى أول هذهالسورة ، ربُّنا له أسماء كثيرة وصفات عظيمة منها الله والرحمن والرحيم ، فالله معناه إلالهُ الذى لا ينبغِى أن يُعْبَدَ إلا هو ، والرحمن صاحبُ الرحمةِ الواسعة التى عمت الانسانَ والحيوان ، بل عمت الكافر والمسلم ، والطائع والعاصى ، ولكن فى هذه الحياة الدنيا فقط فهو يرزق الجميع و يمدهم بالحياةِ ، وأسباب النعيم ، أما فى الآخرةِ فان رحمتَه لمن آمن وعمل صالحا ، والرحيم أيضا كاملُ الرحمة المُوَصِّلُ نعمَه إلى خلقِه ، لاينساهم ولا يَغْفُلُ عنهم ، ولا تفعلوا الذنوبَ وتقولوا : رحمةُ الله واسعة ، إن الله غفورٌ رحيم ، فان الله كما اتسعت رحمتُه ، عظُمَتْ نقمتُه « نَبِّئْ عِبادِى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هوالعذابُ الأليم » ألاَ لا يطمعُ فى رحمةِ الله من كان قلبُه بعيدا عن الايمان ، من كان بعيدا عن تقوى الدَّيَّان ، من منع الزكاةَ عنالفقراء والمساكين ، منلم يصدِّقْ بالقرآن ، ويعملْ بآياتِ الرحمن ، من لم يتبع رسول الله ﷺ فى أخلاقِه وأعمالِه ، فكل هؤلاء لا نصيبَ لهم من الرحمة ، وليس هذا كلاما أقولهُ من عندى ، ولا أحكيه من تلقاءِ نفسى ، فهذا كتاب اللهيقولُ بلسانٍ عربى مبين « ورحمتى وسِعت كل شئ فسأكتبُها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يَتَّبِعُون الرسولَ النبىَّ الأمىَّ » هذا تفسير الآية الأولى

والآية الثانية والثالثة (الحمد لله ربِّ العالمين الرحمنِ الرحيم) أيُّها المسلمون من الآداب فىالعرف أن من أسدى إليكَ جميلا ، أوقدَّم لك معروفا ، نشكرهُ على ما فعل ، ونُثْنى عليه بماصنع ، وإن ربَّ العالمين ربَّ الانس والجن ، ربَّ كل شئ قد ربَّانا أحسنَ تربية ، فربى أجسامَنا بما خلقه لنا من المأكولات والمشروبات ،

والمساكن والملبوسات ، وربَّى عقولَنا ونماها ، فبعدَ أن كنا أطفالا لا نفقهُ شيئا فى الحياة تعهَّدنا بلطفه ورحمتِه حتى صيَّرنا رجالا عقلاء ، وكما ربَّى أجسامنا وعقولَنا ربَّى أرواحنا وهذَّبها بهؤلاء الأساتِذَة العظام، والمعلِّمين الكبار، رسلِ اللهوأنبيائِه ، الذين جاءونا ليخرجونامن الظلمات إلى النور ، ظلمات الشركِ والضلال ، إلى نُورِ الحق والعرفان ، الذين أنزلَ الله عليهم كتبا كالتوراة والانجيلِ والقرآن وكلَّفهم أن يشرحوها بأقوالهم وأعمالهِم، وجعلها مرجعاً للناس بعد وفاتِهم ،فهى دستورُ الله فى الأرض، وقانونُهُ يحكم به بين عبادِه فيما فيه يختلفون ، فهل من ربى أجسامَناوعقولَنا وأرواحَنا وأمدَّنا بكل شئ فى الحياة، هل مَنْ هذا جميلُه وهذه رحمتُه نشكرغيرَه ولا نشكرهُ ، ندعو غيرَه ونناه ، نُشْرِكُ به مخلوقاتِه فى الخضوع لهم والعبادة ، إن هذا لشرك وان الشرك لظلمٌ عظيم ، فالحمدُ لله وحده ، والشكر له على نعمِه ، والثناء عليه بما هو أهله ، وما شكرُه وحمدُه ، إلا بقيامِ كلِّ عضوٍ بوظيفتِه ، فاللسان يتكلمُ بالحق والأذنُ تسمع الخير ، واليد تمدُّ الناسَ بالمعونة وتكون عاملة لا عاطلة الخ شكرُه وحَمْدُه أن تكون لأوامره ممتثلا ، ولنواهيه مجتنبا ، شكرُه وحَمْدُه أن تسعى فى إصلاح نفسك ، وأهلِك وقومك ، أن لا تدع خيرا تستطيعه للناس إلاقدَّمتَه ، ولا شرًّا تقدر على دفعه عنهم إلا دفعته ، هذا هو حمدُ الله الحقيق لا أن تقول كلماتٍ بلسانك ، ليس لها دليلٌ من أعمالك

الآية الرابعة (مالكِ يومِ الدين) إن هناك يوما يُجازَى فيه الانسانُ على ما قدَّم من خيرٍ أو شر ، يوما ينتقم الله فيه من الظالمين ، ويكافئُ العادلين العاملين هذا اليومُ أمرُهُ بيد الله ، وهو حَكَمٌ عدل ، لا يظلمُ مثقالَ ذرة ، فلا ينفع الانسانَ فيه مالُه ولا أولادُه (يوم لا ينفعُ مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ولا ينفعُه أصدقاؤه وخلانه (يوم لا تملك نَفْسٌ لنفسٍ شيئا والأمر يومئذ لله) ولا يفيده كذبه واحتياله ، فان ربك يعلم السر وأخفى (يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بما كانوا يعملون) يوم لا ينفع فيه الملائكةُ المقربون ، ولا الأولياء

الصالحون ، مَنْ تمادى فى الطغيان ، وباء بالخسران (ما للظالمين من حميم ولاشفيع يُطاع) كل هذا لا ينفع الانسان يوم الجزاء إنما ينفعُه إيمانٌ اعتقده ، وعملٌ صالح قدمه ، فخبرونى أيها الحاضرون ، ماذا قدمتم لهذا اليومِ العظيم (يوم يقوم الناسُ لرب العالمين) يوم تنظرون يمينا وشمالا ، وخلفاوأماما ، فلاتجدون ناصرا ولامعينا ، ولا محاميا خطيرا ، العملَ العملَ وأنتم فى الصحة والعافية ، العملَ العملَ وحبلُ الحياة ممدود ، العملَ العملَ ، قبل أن يقطعَ الموتُ عليكم الأمل

الآية الخامسة (إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين) إذا كان ربُّنا بيدِه كُلُّ شئٍ بيدِه أمرُ الدنيا والآخرة ، بيدِه الجنةُ والنار ، فهل يليقُ بنا أن نخضع لغيره ونتذللَ لعبدِه ، أم نخصُّه وحده بالعبادة والتقديس ، فنصلى له مخلصين ، وننفق المال فى سبيلِه صادقين ، ولانرائى فى عبادته أحدا من خليقته ، إن الله جرم العبودية إلاَّله ، فلا تكونوا عبيدالفردِ من الأفراد ، ولا تكونوا أذلاء لأمةٍ من الأمم ، بَل خَلِّصُوا أنفسكم من كل رِقٍّ إلالله ، وفكوا رقابكم من كل غُلٍّ وقيد إلاماقيَّدَكم به الإله ، من قيود شَرعِه الحكيم وقرآنِه المبين . وكما تخصون ربَّكم بالعبادة ، فخصوه وحده بالاستعانة ، فما فى إمكانكم فافعلوه ، وما عجزتم عنه فاستعينوا بالله فيه ، ولا تَنْسَوْا التعاون على البر والتقوى (وإذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعن بالله) وإياكَ أن تقولَ يا ولىَّ الله فلانا اقضِ لى حاجتى وفرِّج عنى من كربتى ، فان ذلك الشركُ بعَيْنِه ، وإنه داعٍ لعدم الاجابة ، فان الأولياء لايُرضيهم معصية الله ، ولايُحبون أن تذكرهم وتنسى الله ، ولا يَوَدُّون أن تناديهم وتغفل عن الله ، إنمايحبون أن يكونَ الناسُ أمثالَهم ، يتقربون إلى الله بما تقربوا به إليه إيمانٍ وعملٍ صالحٍ ، وان الله يُغْضِبُه أن تسألَ خلقَه وتدعَه ، فهل إذا غضِب منك يجيبُك إلى طلبك ؟ هيهاتَ هيهات ، ثم يا مسكين أيهما أقربُ إليك ؟ المخلوقُ الذى انقطع حبل حياتِه وأصبح رهينَ أعمالِه ، الذى لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعا فضلا عن أن يملك لغيره شيئًا أم الربُّ الذى هو أقربُ إليكَ من حَبْلِ الوريد ؟أتدعُو

من ليس فى يده شيء وتترك من فى يدهِ خزائنُ السمواتِ والأرض « وما قَدَروا الله حقَّ قدره ، والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة ، والسمواتُ مطويّاتٌ بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون»

الآية السادسة والسابعة (اهدِنا الصراطَ المستقيمَ صراطَ الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين) يجب علينا أن نستعين بالله فى طلب الهداية والتوفيق للحق ، نطلب منه أن يرشدنا إلى الطريق المستقيم ، وما الطريق المستقيم إلا كتابُه وقرآنُه الذى فيه شفاء لمرضى الأخلاق ، مرضى النفوس ، الذى فيه القوانين الكافلة لسعادة الفرد والجماعة ، للسعادة فى الدنيا والآخرة ، الذى كوَّن من أشتاتِ العرب أمةً عظيمةً ، فتحت البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت الكلمة لها ، والسمعُ والطاعةُ لغيرها ، القرآن الذي ضمِن الله حفظَه ، وجعله دستورا للناس لا تغيير في موادِّه ولا تبديل ، وهل فيه من نقصٍ فيبدل أو من عَيْبٍ فيغير ؟ كلاَّ فانه صنع العليم الحكيم « وأن هذا صراطى مستقيما فاتَّبِعُوه ولا تتَّبِعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » فكتاب الله هو الطريق المستقيم الذى إذا سلكناه وصلنا إلى العزة والكرامة فى الدنيا ، وإلى الجنة والسعادة فى الأخرى ، الطريق المستقيم هو طريقُ من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين ، طريقُ الله هو طريقٌ بين طريقين ، وحسنة بين سيئتين من سلك أحدهما ضلَّ وغوى ، وحاد عن طريق الهدى ، ألا إن الناس أصنافٌ ثلاثة صنف تعلَّم هذا الدين من ينبوعه (كتاب الله وسنةِ رسوله الشارحة لأحكامِه) وعمل بما تعلّمه ، فاتخذ القرآنَ أستاذَه فى العلم ، وإمامَه فى العمل فهذا قد سلك صراطَ الله المستقيم ، وصنفٌ تعلَّم هذا الدين وترك العملَ جانبا فيقول الخيرَ ولا يعمله ، ويأمرُ الناسَ بالبر وينسَى نفسه ، ويَعُدُّ نفسَه فى زمرة العلماء ، وهو فى الحقيقة أجهل الجهلاء ، يظن إن علمه نافعه ومُنْجيه ، وإن هو إلا مهلكهُ ومُرْدِيه ، يظن أن مكانتَه عند الله عظيمة ، وليس له عند الله إلا نار شديدة ، فهذا قد غضِب الله

عليه ولعنه وأعدَّ له جهنم وساءت مصيرا ، وصنف عمِل على جهالة فتراه يعبدا الله بما لم يشرْعه ، ويتقربُ إليه بما يُبْعِد عنه، يتفانى فى العبادة وقد تفانى قبلُ فى الجهالة أولئكَ هم الضالون طريقَ الهداية (أولئك الذين ضل سعيُهم فى الحياةِ الدنيا وهم يحسَبون أنهم يُحسِنون صنعا) ذلك هو الفريق الثالث فالأول من الناجين والآخران من المهلَكين ، فأىَّ طريق سلكتَ يا مسكين ، إن كنتَ مؤمنا حقا ، ومخلصاً صدقا ، فاعْكُفْ على كتابِ الله تقرؤُه، وتتفهمه وتتدبره ، وتملأ نفسَك من علومِه الناضجة ، ومِصاياه النافعة ، وحكمه القيمة ، تنفخ فى رُوحِك من روحِه ، وتهذِّبُ نفسَك بأدبه ، وتكمل نقصَك بكمالِه ، ثم أتبع علمك هذا بعملِك فكلما قرأت آية فيها دعوةٌ إلى خير فارجع إلى نفسك هل عملتَ بها ، وأقمتَ رسومَها ، أم أنت لها من التاركين ، وكلما تلوت آية فيها تنفير من رذيلة ، وتحذير من جريمة ، فانظر إلى نفسك هل أنت لهذه الجريمة مقترف ، ولحرمتها منتهك أم أنت تاركُها جانبا ، وإن مررت بآى العذاب فتذكر هولَه وخطرَه ، وأنه لك لامحالة إن كنت من العاصِين ، واجأر إلى الله أن يُؤْمِّنَك عذابه ، ويجنبك عقابه وإن مررت بالجناتِ ووصفِها ، فاطلب من الله أن يجعلَك من أهلها ، وأن يوفقك لطريقها ، وقل لنفسكَ « يا أيتها النفس المطمئنة ارجِعى إلى ربِّك راضيةً مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

النموذج الثانى فى الايمان

قال الله تعالى فى سورة الانفال « إنما المؤمنونَ الذين إذا ذكر الله وجِلت قلوبُهم ، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتهم إيمانا، وعلى ربِّهم يتوكلون ، الذين يُقيمون الصلاةَ ، ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »

أكثر المسلمين يظنون أنهم متى قالوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله كانوا

مؤمنين ، ولمثوبة الله مستحقين ، وإن كانت هذه الكلمة إرثا عن آبائهم ، وتقليدا لأسلافهم ، ولا أثرَ لها فى أعمالهم وأخلاقهم ، ولو كان الآباء يقولون بدل هذه الكلمة : الله ثالث ثلاثة والله هو المسيح ابن مريم لقالوا كما قال آباؤهم لأنهم « كالفونغراف » يردد صوتَ غيره ولا يفقه منه شيئا ، فأكثرُ المسلمين يظنون أن هذه الكلمة تُنْجِى قائلَها من النار ، ولو كانت من طَرَف لسانه ، ولو كان ممن انغمسوا فى المعاصى ليلَهم ونهارهم ، وسعَوْا فى الأرض فسادا ، وأهلكوا الحرثَ والنسل ، ألا إن الله قال قولا لا يُبَدَّل ، وحَكَمَ حكما لا يُعَقَّب ، بأن الايمان ليس بكلمات يُتَمْتِمُ بها الانسان ، بل هو قلبٌ طاهر ، وعملٌ صالح . يودُّ الانسانُ لو يعرِف مستقبلَه إما إلى جنة ، وإما إلى نار ، فان عرفه الجنة اطمأنَّ لها ، وإن عرفه النارَ سلك غير طريقها ، وفى إمكان الانسان أن يعرف من الآن عاقبتَه حُسْنى أو سُوْءى فان الله ذكر صفاتِ المؤمنين ، ورتَّب عليها السعادة فلينظر كلُّ امرئ إلى نفسه ، فان كانت تلك الصفاتُ خِلالَه فهو ممن يرثون الفردوس ، وإن كان بعيدا عنها فالنار مثواه ذكر الله فى هذه الآيات خمسَ صفات هى علامةُ الايمان الحق ، علامةُ الاسلام الصحيح ، فمن كان عنده الخمسُ فالايمان كامل ، ومن نقص واحدة فايمانه ٨٠ ٪ ومن نقص ثنتين فايمانه ٦٠ ٪ ومن نقص ثلاثة فايمانه ٤٠ ٪ ومن نقص أربعة فايمانه ٢٠ ٪ ومن فقدها كلها فلا حظ له فى الايمان ، والواجب عليه السعىُ فى تداركِها قبلَ أن ينقضىَ أجله ، فأولى هذه الصفات « إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » جرت العادة أن الانسان إذا سمع اسم كبير أو عظيم صاحبِ سلطان عليه يحصلُ عنده وَجَلٌ وخوف ، وهو دليلُ أنه يعرِفُ قدرَه ، ويحترم له مكانتَه هذا ما يحصل عندنا لذكر العظماء والرؤساء ، والملوك والأمراء ، وهم ما زالوا عبيداً فقراء ، إن كانت لهم على الانسانِ نعمةٌ فهى محدودة ، وان كانت لهم صولةٌ وشوكةٌ ، فهى لا بد منزوعة ، فكيف لا يحصل عند المؤمن وَجَل وخوف ، وخضوعٌ وخشية ، وانكسارٌ وذلة ، إذا سمع اسمَ مدبِّر الكائنات ، ربِّ الأرض

والسموات ، مَن كلُّ شيء فى قبضته ، وكلُّ مخلوقٍ فى حاجةٍ إلى رحمته ، من إذا منع مدده عن الانسان لحظة لم يكن له وجودٌ ولا حياة ، من يعلم خواطرَ النفوس وهمساتها ، وسرَّها وعلانيتها ، من أحاطَ بكل شيء علما ، فلا شك كان من علامةِ الايمان وَجَلُ القلوب عند ذكر خالقها فمن وجلت قُلوبُهم فأولئك من الايمان بمكان ، أما من يمرّ بسمعهم اسم الله وذكرُه فلا تتغير لهم حال ، ولا تتحرك منهم نفس ، ولا يخشع لهم قلب ، ولا يذكرون عظمةً غير محدودة ، واذا ذكر غيره ارتعدت منهم الفرائص ، وملكت عظمتهُ قلوبهم ، فنسُوا كلَّ شيء إلا مركزه ومجده ، إلا عزَّه وماله ، فأولئك الايمان بعيدٌ من قلوبهم ، لم يقدُروا الله حقَّ قدرِه ، ولم يعرفوا مدى سلطانه و بطشه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكرِ الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتابَ من قبل فطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون)

وثانيةُ هذه الصفات (وإذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانا) من علامة المؤمن أنه إذا سمع آيات الله تُتْلَى ، ووحيَه يُقْرأ ، وخطابَهُ يُلْقَى ، زاد إيمانا إلى إيمانِه ويقينا إلى يقينه ، وعلما إلى علمه ، ذلك أن قلبَه حاضر ، وسمعَه واع ، ونفسَه شَيِّقَةٌ إلى ذكرِ الله ، تداوى به عللَها ، وتضمد جراحَها ، وتصلح به ما اختل من شئونها واعوجَّ من أمورِها ، تسمع خطابا من حبيب ، أو كلاماً من رئيس ، أو شكرا من وزير أو مليك ، فتنصرفُ إليه بقلبك ، وتُلْقِي إليه بأذنك ، وتتفهمُه كلمةً كلمة ، وتضعه فى حبةِ قلبك ، ثم تَجِدُّ فى تنفيذِه مهما كلفك من وقت ومال ، ونَصَب وكلال ، فتمثَّلْ هذا إذا سمعتَ آيَ الذكرِ الحكيم ، إذا سمعت خطابَ ربِّ العَرش ، إذا قرع نداؤه أذنَك ، أليس كلامُه أولى بالعناية ، وأجدر بالرعاية ، ألا تفتح له كلتا أذنيك ، وتُمِره إلى مقر نفسك ، وتُسكِنُه حبة قلبِك ، لتحرك به جوارحَك بصالح الأعمال ، وطيب الأفعال : كان ينبغى هذا بالمؤمن الذى صدق فى إيمانه ، وأسلمَ وجهَه لديَّانِه ، ولكنَّ المسلمين الآن يسمعون أنغام الموسيقى ،

وآلاتِ اللهو والطرب ، وأصوات الخليعات الفاتنات ، اللائى لم يطهر ذيلُهُن ، ولم يَعِفَّ مئزرُهن ، يسمعون هذه النغمات فيُصْغُون لها الاصغاء كلَّه ، وينفرون أو يسبون من يعكرِّ عليهم صفوَ السماع بكلمة أو همسة ، ويكررون الأنغامَ فى نفوسِهم ، حتى يحفظوها فى صدورهم . تلك حالهُم عند سماع الآلات ، والمغنيات الخليعات. أما إن حضروا مجلسَ قرآن تتْلَى فيه الآيات ، ويذكرُ فيه ربُّ المخلوقات ، فانهم عنه ينصرفون ، وفى شؤونهم الخاصة يتحدثون ، وربما كان حديثهم طعنا فى أعراضِ الناس ، وانتقاصاً لأعمالهم ، وثَلْماً لشرفهـم ، ولم يذكروا أن هذا القارئ إنما هو مبلِّغ ، وأنه حاكٍ لـكلام رب العزة ، فهم إذا أعرضوا عنه فانما يُعرِضون عن ربِّهم ، وإن انتهكوا حرمةَ مجلسه فانما ينتهكون حرمةَ مَنْ بيدِه ناصيتُهم ، من إذا شاء أحلَّ بهم الآن بأسَه ، وأذاقهم نـكالَهُ ، ولـكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

ومن الناس من يستثقل القرانَ كأنه حجرٌ على قلبه ، ويودّ أن يقومَ من مجلسِه ، كأنَّه فى سِجْن ، ويكره القارئَ كأنه عدوٌّ لدود ، أولئكَ الذين في قلوبهم مرض ، أولئك لم يسكن الإيمانُ قلوبهم (وإذا ما أنْزِلَتْ سورةٌ فمنهم من يقول : أيُّكُمْ زادتْه هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتْهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتْهم رِجْساً إلى رجسِهم وماتوا وهم كافرون) فاجتهدْ يا مُسلم أن تـكون لـكلام الله مُصْغيا ، وفى معانيه مفـكرا ، ولمجلسِه معظما ، ولقارئه موقِّرا ، اجتهد ليزدادَ إيمانُك ، ويقوَى يقينُك ، وتـكون لديك حجةٌ تدافع بها عن نفسِك إذا ما وقفتَ أمامَ ربِّك

وثالثة هذه الصفات « وعلى ربِّهم يتوكلون » التوكل على الله الاعتمادُ عليه فى بلوغِ الغايةِ من العمل ، والوصولِ إلى النتيجة بعـد الأخذ فى السبب ، ومن علامة المؤمن أنه لا يعتمدُ إلا على الله ، فلا يعتمدُ على مخلوقٍ لأنه ضعيف ، وإن كان وَليًّا مقرَّبا ، فاذا شرع فى عمل فَلْيُوَطِّن نفسَه على أنه لن يجني ثماره ، ويبلغَ الغرضَ منه إلا إذا حاطته رعايةُ الله ، وسهّلت له الأسبابَ ، وذلَّلت أمامَه الصعاب ،

فانهُ إنْ وطَّنَ نفسَهَ على ذلك أمدَّه الله بقدرته ، حتى يصِلَ إلى غايتِه ، وليس معنى التوكل أن تنامَ في البيتِ ، وتقعد عن العمل ، وتقولَ : سيأتيني رزقي ، وما قُدِّرَ لا بدَّ واصلي ، فانهذا ليس من التوكُّلِ في شيء ، بل هذا ضعفٌ وعجز ، وخمولٌ وكسل ، إنما التوكّل على الله أن تكون كما قال الرسول ﷺ « لو توكَّلتم على الله حقَّ توكُّلِه لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا » فالطير ليس لها مخازن تُودِعُها الحبوب والأقوات ، ولا صهاريجُ تملؤها بالمياه ، ولا حقولٌ خاصة تتناولُ منها غذاءها ولكنها تهبُّ من أوكارِها في الصباح ، قدخلت بطونُهامن الطعام والشراب ، فتسرحُ ، في الجوفيأتيها رزقها ، فتملأجوفها ، وترجعُ بطاناً وقدغدت خِماصا ، فالطيورلم تستكنَّ في عشها حتى يأتيها طعامُها ، وكذلك ينبغي أن يكون توكُّلنا ، نسعى في الأسباب ، ونرجو من الله التوفيق والنجاح « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وكثيرا ما جربنا أن الانسان إذا اعتمد على قوَّتِه وذكائه ، ومراسه وبلائه ، ونسي الله لا يصل إلى غرضِه ، أو يطولُ طريقُه ، وإذا ما ذكرالله وقت مباشرة الأسباب ، ورجامنه العونَ والتوفيق سهَّل الله له السبيل « ربنا عليكَ توكّلنا وإليكَ أنبنا ، وإليكَ المصير »

رابعةُ الصفات « ويُقيمُون الصَّلاة » الصلاة عماد الدين من أقامها أقامَه ، ومن هدمها هدمه ، الصلاة صلة بين العبد وربِّه ، وما أحوج العبد لهذه الصلة ، الصلاة رياضةٌ للنفس وتطهيرٌ لها من رجس الشيطان ، الصلاة ذكرٌ لله ينهى عن الفحشاء والمنكر ، الصلاة حركاتٌ جسْمِيةٌ يستفيدمنها الجسم وتزيل عنه الخمولَ والكسل ، الصلاة قرآنٌ يتلى ، وشكر لله وتقديس ، وتنزيه لله وتسبيح ، من أجل هذا أمرنا الله باقامة الصلاة ، وحتَّمها علينا في السلم والحرب ، والصحة والمرض وما إقامتها إلا أداؤها في أوقاتها المحدودة « إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » فلا تجمعْ صلاتين أو أكثر فان ذلك إثم كبير وداع للاسراع في الصلوات وترك الخشوع فيها ، ماإقامتها إلا أن تأتي بهامستقيمة كالعود لا اعوجاجَ فيها ولا

انحراف عن حد الاعتدال ، وإنما يكون ذلك إذا كانت كلها خشوعا وخضوعا ، سجودا وركوعا ، فالقلب يركع لله و يسجد قبل أن تركع الجوارحُ وتسجُد ، القلبُ يقرأُ و ينْطِق ، قبل أن يتحرك اللسانُ و يلفِظ ، القلبُ يسكُنُ و يطمئن ، قبل أن تسكنَ الجوارح وتستقر ، القلب يسبِّح الله ويَحْمَدُه ، قبل أن ينزهه اللسان و يشكره ، النفسُ تفكر فيمَنْ وَقَفَت بين يديه تحادثه وتناجيه ، فلا يكن الجسم لله را كعا ، والقلب عنه عادلا ، قد شغلته الأموال والأولاد ، والوظائف والأعمال والدنيا وشؤونها ، والحياة وهمومها ، فمثل هذا لايوحد الله فى العبادة ، ولكن يشرك به غيره ممن خلقه ، لقد كان لنا فى رسولِ الله أسوةٌ حسنة ولقد قالت عنه زوجُه عائشة (كان رسول الله ﷺ يحدِّثُنا ونحدثه ، فاذا حضرت الصلاةَ فكأنه لايعرفُنا ولا نعرفه) فوقت الصلاة وقت خاص بالله ، لا ينبغى أن يشتغل فيه إلا بذكره ، وإن مما يعينُ على إحضارِ القلب ، ونسيانِ الغير ، أن تتفهَّم ما تقول من قرآن أو تسبيح ، أو ذكر أو تشهّد ، وأن تتذكر أن الله مطلعٌ عليك ينظر إلى قلبِك وعملِك ، لا إلى صورتِك وشكلِك ، ومن الاساءة أن تناجيَه بلسانك ، وقلبُك عنه فى غفلة ، ملأته الدنيا ، ففرغ من حبِّ اللهِ وذكره ، فصلِّ للهِ بقلبِك قبل أن تُصَلِّيَ له بجسمِك ، واعلم أنه ليس لك من صلاتك إلاما عقَلْتَ منها ، فان عقلتَ خمسها فلك ثوابه ، وإن عقلتَ خمسيها فلك مثلهما ، و إن عقلت أكثر فلك بقدر ما عقلت ، و إن لم تعقل منها شيئا فقد أتعبت جِسْمَك وعصيتَ ربك (فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يُرَاءون ويمنعون الماعون)

الصفة الخامسة من صفات المؤمنين (ومما رزقناهم ينفقون) من نعم الله على العبد الأموالُ التى يتمتع بها فى هذه الحياة فيأكل منها ويشرب ، و يسكن و يلبس ، ويركب و يتنزه ، و يتزَوج ويستخدم ، ومن الناس من ضاقت يدُهم ، أوضعفَتْ حيلتُهم ، أوقلَّ كسبُهم عن نفقتهم ، فترك هؤلاء بلامعونة ليس من الشفقة والرحمة ، بل هناك ضروب للاصلاح كانشاء المساجد والمدارس ، والمستشفيات

والملاجئ، إن لم يَمُدَّها الأغنياء بمالهم، أصاب البلادَ ضررٌ عظيم، من أجلِ هذا حتَّم اللهُ علينا أن نخرج جزأً مما رزقنا لهؤلاء المحتاجين، وفى سبيلِ هذه المصالح فتزول بذلك الفاقة، وتتحقق للناس الهناءة والراحة، بهذا الجزء الذى ننفقه نضمن محبة الفقراء، وعطفهم وودَّهم، وهم جزءٌ كبيرٌ من الأمة، باخراج الزكاة كلَّ سَنَة يرى الفقراء أن الأغنياء رأس مالهم، فيحافظون على حياتِهم، ويدافِعون عنهم ما استطاعوا، أما كَفُّ اليدِ عنهم، ومنع معروفهم أن يصلَ اليهم، فانه يُوغِر صدورَهم، ويملؤها حقدا عليهم، ويجتهدون فى سلب حياتِهم للوصول إلى أموالهم المخزونة، وكنوزِهم المدفونة، فتكونُ الحياة مهدَّدَة، والأمنُ مفقودا، فلا تتنعمُ النفوسُ بلذاتِ هذه الحياة وخيراتها، أضِف إلى هذا أن كنزَ الأموالِ مورثٌ النفْسَ الشحَّ والبخل، وهما رذيلتان مهلكتان، تحرِمان الانسانَ من أن يتمتع بكدِّ يده، كما تحرِمان الناسَ، وتجعلان المرء يُجَمِّع لغيره الذى ربما أنفق فى ساعة ماجمعه سلفُه فى حياتِه، فتمتُّع المرء بما جمع، ومدُّ يده إلى غيره بالبذلِ والعطاءِ سعادةٌ له وللناس، لم يَطلب الله منا كثيرا، بل مقدارا قليلا، فالنقود التى مضى عليها سنة كاملة نخرج عنها ٢½٪ والحبوب إذا حصدناها نخرج عنها ٥٪ إن كنا نسقيها بالآلات كالساقية والمصاصات، ونخرج عنها ١٠٪ إن كانت تسقى بغير دولاب ولا آلات، والكنوز التى نعثر عليها فى الأرض نخرج عنها ٢٠٪، ولا تظنن أن النفقةَ من المال فقط، بل إن رزقَكَ الله صنعةً أو حرفة، فواسِ بها المحتاجين، فان كلَّ خير يملكه الانسان فى هذه الحياة عليه أن يساعد الناس به جهده، فان لم تكن ذا مال ولا حرفة، ولا عمل ولا قوة، فالكلمات الطيبةُ صدقاتٌ لك، فالانفاق مما رزقنا الله واجب على الجميع، وفى إمكان كل فرد أن يقوم به وقد قال رسول الله ﷺ: كل معروف صدقة

تلك هى الصفاتُ الخمس التى يكون بها إيمان الانسان حقا لا باطلا ، وكاملا لاناقصا (١) خشوعُ القلبِ عندذكر الله (٢) والتأثُّرعندسماعِ القرآن (٣) وإقامةُ الصلاة (٤) وإيتاء الزكاة (٥) والاعتمادعلى الله، تلك أعمالٌ يعملهاالانسان ، ولكل عمل عند الله جزاء ، وما أحسن جزاءه ، وأجزلَ ثوابَه ، أتدرى يامؤمنُ بم يكافئكَ ربك على هذه الأعمال الحسان ؟ أعدَّ لك ثلاثَ مكافآت ، أولاها ، درجات عنده لاتقاس بهاالمناصب الدنيوية ، ولا الدرجاتُ المالية ، ولاالرتب السَّنية ، وكفاها شرفا أنها عند الله ملكِ الملوك « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعدِ صدْقٍ عند مَليكٍ مقتدر » ، المكافأة الثانية ، مغفرةالله وعفوُه ، فاذاأعطاك الدرجات السابقة لم يعنفك على ذنب قد فرط منك، قد تبت منه ، وأقلعت عنه ، وندمت عليه،فليس المقام مقام عتاب وتوبيخ ، ولالومٍ وتقريع ، ولكنه مقام إكرام وتبجيل ، وعطفٍ وتفضيل ، المكافأة الثالثة ، تحيةٌ يقدمها لك رب الخلق ليست قهوة ولا شايا ، ولا « بسطة » أو شرابا إنما هى رزق كريم ، كريم على النفس بالهناءة والسعادة ، تأكل منه شهيا ، وتشرب هنيا « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الايام الخالية » تلك هى المكافآت الثلاث التى أعدَّها لك ربُّك ولو أردنا أن نبينَها لك تبيينا ونفصّلَها تفصيلا ، لاحتجنا إلى عشراتِ الدروس ، ودونكَ القرآن ، فخذ منه التفصيل ، وإذ قد سمعتَ يامسلمُ وصف الله للمؤمنين ، فلا تغرّنك كلماتٌ تحكيها بلسانك ، وتظن أنها محضُ الإيمان ، ولا أعمالٌ جامدة لاصلة لها بالقلوب ، تظن أنك بعملها من الأبرار المتقين ، بل زن نفسك كلَّ ساعة بهذا الميزان الدقيق ، ميزان الإيمان لتعرف درجتَك فيه ، ومكانتك منه ، فإن وجدتَ خيرا فاحمد الله على ما هداك إليه ، وإن وجدتَ غير ذلك فلا تلومَنَّ إلا نفسَك ، ولكن لاتيأس من رحمة الله ، فأبواب التوبة مفتحة ، وطريق العمل مُعَبَّدَة ، فتب إلى الله مما مضى توبة تنسى النَّاسَ ما ضيك ، وتزيل ما على قلبك من صدأ العصيان ، توبة تبدّل فيها السيئاتُ حسنات ، والمعاصى طاعات ، توبة عبدٍ عرف مقام ربه ، وشديد

بطشه ، وعظيم قهره ، فوقف عند حده ، وجد فى العمل ، وألقى بثوب الكسل ، وقال « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين » « ربنا إننا سمعْنا منادياً ينادِى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتِنا وتوفَّنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسُلِكَ ولا تُخْزِنَا يومَ القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد »

النموذج الثالث

درس فى سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

« والعصرِ إنَّ الانسانَ لفى خُسْرٍ ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ، وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبرْ »

العصرُ هو الزمان ، العصرُ مملوء بالحوادثِ والوقائع ، والعظات والعبر ، العصر أذلَّ أمماً كانت عزيزة ، ورفع أخرى كانت وضيعة ، العصر أعز العادلين ، وأذل الظالمين المفسدين ، العصر بيَّن أن الامَ إذا تمادت فى الطغيان ، وانصرفت إلى شهواتها الشخصية ، ونسيت المصالح العمومية ، استحقت عذابَ الله ونكالَه ، وبأسَه وعقابَه ، وأن الامم الضعيفة إذا قوَّت نفوسَها بالعلمِ والعملِ ، وخلعت عنها رداء الكسل ، وأخذت بأسبابِ الحياة ، بدَّلها الله من ضعفِها قوة ، ومن تفرقِها وحدة ومن فقرِها غنى ، ومن استكانتِها أنفة وشمما ، وعلوًا ومجدا ، فالزمن هو الأستاذُ الأكبر ، والمعلم الأول الذى يعلِّم الأفراد والشعوب : أن العاقبةَ للمتقين ، والخسرانَ للظالمين ، ومن لم تعلمْه حوادثُ الأيام وصروفُها ، وتقلباتُها ومحنُها ، فلا يزال طالبا قاصرا ، وتلميذا جاهلا ، وإن مكث فى المدارسِ سنينَ عديدة ، ونال شهادات عظيمة ، ومن له فى تجاريبِ الحياة نصيبٌ ، يعرِف أن ماتعلمه فى معاهدِ العلم قشور

بالنظر إلى ما استفاده فى مُعْتَرَكِ الحياة ، فالمربّى الأكبر ، والمرشِدُ الأعظم ، إنما هو الدهر ، فمن أجل ذلكَ أقسمَ الله به ، إرشادا إلى علوِّ مرتبتِهِ فى التعليم ، وإلى أنه شاهدُ صدق على أن الناسَ جميعا فى خسارة إلا المؤمنين الصالحين . وإذا كان الله يحلف بمخلوقاته للارشاد إلى مافيها من منافع ، فليس لنا أن نحلف بالمخلوقات ، لأن الحلف ضربٌ من التعظيم والعبادة ، والعبادة حقُّ الله المحض الذى لاحظَّ لغيره فيه ولذلك قال النبى ﷺ : من كان حالفا فليحلفْ بالله أو ليصمت ، فحرام علينا الحلف بالمخلوق وإن كانَ نبيًّا أووليا ، أو يتبوّأ مكانا عليا ، ولقد أعطى الدهرُ الذى أقسم الله به درساً قيّما للمسلمين ، لو كانوا يعتبرون ، وبالحوادثِ يتعظون ، فأفاض عليهم بخيراته ، ومكّن لهم فى الأرض ، وأعطاهم المُلْكَ واسعا ، والعزَّ شامخا ، يوم أن كانوا بحبلِ الله معتصمين ، وبهذا الدين عاملين ، يومَ لم تُلْهِهِمُ الدنيا عن الأخرى ولم يشغلْهم التمتعُ بالطيباتِ ، عن القيامِ بالواجباتِ ، فلما تركوا القرآن ظهريا ، ونسوا الله أنساهم أنفسهم ، فتركوا تهذيبَها ، وإصلاحَها وتقويمَها ، حتى تمكنت منهم الجهالة ، فأصدروا طالحا ، ونبذوا صالحا ، فحقت عليهم الذلة ، واستعمر الأجانبُ بلادَهم ، وسلبوهم أموالهَم ، ووضعوا أيديَهم على كنوزِها وخيراتها ، ومنابعِها وثمراتِها ، واستلوا الشجاعة من نفوسِهم ، بما نشروه من مدنياتهم ، فضعفت فيهم روح المقاومة ، ورَضُوا بالذلة والهُون ، جزاء بما كانوا يكسبون ، فعسى أن يكون لهم فى دروسِ الدهرِ عبرة ، فَيُفِيقُوا من هذه الغفلة ، ويَهُبُّوا من هذه النومة ، ويعملوا على إعزاز دينهم ، ليمكّن لهم فى الأرض ، ويبسط نفوذَهم على الخلق « وعد الله الذين آمنوا منكم وعمِلُوا الصالحاتِ ليستخلفنَّهم فى الأرضِ كما استخلف الذين من قبلِهم ، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذى ارتضى لهم ، ولَيبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمنا »

لقد أقسم الله بالعصرِ على أن كلَّ إنسان فى هذه الحياةِ خاسر ، فالزارع خاسر ، والتاجر خاسر ، والصانع خاسر ، والموظف خاسر ، والوزير خاسر ، والأمير خاسر ، والعالم فى أى فنّ خاسر ، دينيا كان أو رياضيا ، تاريخيا كان أو فلكيا ، كل إنسان

أيا كانت صنعتُه ، ووظيفتُه ودرجتُه خاسر فى هذه الحياة ، إلا الذين جمعوا أوصافا أربعة هى سر النجاح فى الحياتين ، وطريق السعادتين ، وهى رأس المال الحقيق للتجارة الرابحة

(١) الايمان (٢) والعمل الصالح (٣) والتواصى بالحق (٤) والتواصى بالصبر

فالذين جمعوا هذه الاوصاف هم الرابحون في الحياة ربحاً حقيقيا ، ربحا يفيدُهم أحياء ، ويفيدهم أمواتا ، يفيدهم يوم يُسْلِمون الروحَ إلى ربهم ، ويُوَدِّعون الحياةَ والأهل والمال والولد ، يفيدهم يوم يبعثون من قبورِهم ، ويجتمعون فى ميدانِ الحشر صفوفاً ليحاسبوا على أعمالهم ، يفيدهم يومَ يقوم الناسُ لربِّ العالمين ، فمن جمع هذه الأوصاف فهو السعيدُ السعادة الخالدة ، الأبدية الدائمة ، وإن كان فى الدنيا فقيرا ، أوعاملاحقيرا ، ومن فقدها فهوالأشقى ، الذى يَصْلَى النار الكبرى ، وإن كان غنيًّا أوأميرا ، أومَلِكاً أووزيرا ، وخليق بنا أن نشرحَ لك تلك الأوصاف شرحا يجليها لسمعِك ، ويمثِّلها أمامَ نظرك ، كأنك تراها رأى العين ، وتلمسها باليدين ، فاستمع بقلبِك ، وألق إلىَّ بكلِّ نفسِك ، وقل ربِّ زِدْنى علما ، ووفقنى أن أعملَ صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتِك فى عبادِك الصالحين

فأولى هذه الصفات الايمان فواجب علينا أن نؤمنَ بالله ، وأنه واحد أحد نخصه بالعبادة ، ونُفْرِدُه بالدعاء ، نعتقد أنه لا سلطان أعلى من سلطانه ، وأن كل شىء خاضعٌ لأمره ، إن شاء القضاء على هذه الأمم المستعمِرة ، لم يمنعه مانع وان شاء عزَّنا ومجدنا فمشيئتُه النافذة ، وكلمتُه الجاربة ، ولكنه لا يُهْلِكُ القرى بظلمٍ وأهلُها مصلحون ، ولا يعزُّ إلا من أعز دينَه ، ونصر شرعَه « وليصرنَّ اللهُ من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » فواجبٌ علينا الايمانُ بوحدتِه ، والايمان بعظمتِه وقدرتِه ، وبكل ما وصف به نفسَه ، وواجب علينا أن نؤمنَ بملائكته ، الذين يقومون بتدبير مملكته العليا ، وتدبير الشؤون العامة فى الدنيا ، فمنهم السفراء بينَه وبين رسُله ومنهم الكرام الكاتبون ، ومنهم الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفْتُرُون ، ومنهم

الموكلون بقبضِ الأرواح ومنهم ومنهم . . . . واجب علينا أن نؤمن برسله الذين أرسلهم مصلحين، يدعون الناس إلى الهدى ، و يرشدونهم إلى طريق مستقيم، يعلمون الناس ما به يصلح حالهُم فى الدنيا ، و يسعدون فى الآخرى، علينا أن نؤمنَ بكتبه ، التى هي مرجع الأنبياء فى حياتِهم ، وملجأ الناس بعدوفاتِهم ، كتبه التى هى قوانينُ لضبطِ مصالح البشر ، ودساتيرُ لحفظ الحقوق ، وتمنع الناس أن يعتدىَ بعضُهم على بعض ، علينا أن نؤمنَ باليوم الآخر الذى توفى فيه كلُّ نفسٍ ما كسبت من خير أوشر « فمن يعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرَه » واجبٌ علينا الايمانُ بكل ذلك ، لنكون من أهل البر والفلاح « ولكن البرمن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتابِ والنبيين »

والصفة الثانيـة عملُ الصالحات . كلُّ شئ تصلح به نفسُك فى صحتِها وخُلُقِها وعقلِها فهو عمل صالح ، وكل شئ يصلح به أهلك وولدك ، وجارك وقومك ، ودينك وأمتُك ، بل الناسُ جميعا فهو عملٌ صالح، فتناول الطعام بلا إسراف ولا تقتير عملٌ صالح ، وتربية الخلق وتهذيبه عمل صالح ، وتعلُّم العلوم الرياضية التى تنمّى العقول عمل صالح ، وقيامُك بواجباتِك نحوَ أهلك عمل صالح ، وتربيتك لولدك و إنفاقك عليه عمل صالح ، وحسن الجوار عمل صالح ، وسعيُك فى مصلحة عشيرتِك عمل صالح ، وتعليمُك الدينَ ودفعُ الشبهاتِ عنه عمل صالح ، والعمل على جمع كلمة المسلمين ، وتقويةِ الصلة بينهم عمل صالح ، والسعىُ فى وقفِ الحروب وتعميمُ السلامِ فى الأرض ، و إنشاء المواصلاتِ العامة التى يستفيد منها الناس قاطبة أعمالٌ صالحة ،والصلاة مُصْلِحة للنفس ، والزكاة مُصْلحة للضعفاء ، والصيام مجْلَبَة للصحة ، والحج توثيقٌ لعرا المسلمين ، وكل خير تقدمه لنفسك ، أو تفيد به غيرك ،فردا أوأمة فهو عمل صالح ، وعلى قدر النفع يكون مركزُك فى الصلاح ، فربَّ شخص يصلّى ولكنه تارك لضروبِ الاصلاح الأخرى على كثرتها ، فهذا لا يعدُّ صالحا باطلاق ، وربَّ شخص يصوم ، ولكنه عن الطعن في الأعراض لايُقْلع ، فربما ذهب طعنهُ

بصومه ، فليس من الصلاح فى قليل ولا كثير ،ورب . . . . فحذار أن تحكم لانسان بالصلاح لحسنة رأيتها ، أو بعض أعمال عملها ، إنما هو صالح فيما فعل فقط ،أما غيره فلا نعلمه ، فنقف عن وصفه به أو خلوّه عنه حتى يأتينا اليقين ، فلا تصف شخصا للناس بالصلاح المطلق لفضيلة عاينتها فيه دون أن تكون مُلِمًّا بكل أحواله ، فتكون من الغشاشين الخداعين ، إذ ربما صَدَّقك غِرٌّ كريم ، وربما انطوت نفسُ هذا على شرٍّ لئيم ، فيقع الغِرُّ فى حبائل هذا الشيطان ، وكل هذا من عدم دقتك فى الوصف ، ومن منح الألقاب ، بدون بحث فى الأسباب

ولعلك بعد هذا قد عرفت أن صفة العمل الصالح صفة عظيمة ، تستدعى أعمالا جليلة ، ومجهودات عظيمة ، فسابقْ فى الخيراتِ لتكون ممن عمِلوا الصالحات فاستحقوا ربح الجنات

الصفة الثالثة التواصي بالحق، الحقُّ كلمة قامت بها السموات والأرض ، الحق الشئ الثابت الذى فيه خيرُ المجتمع، فتوحيدُ الله حق وقراءةُ القرآن حق ، والعملُ بما فيه حق ، واتباع الرسول حق ، والأمر بالمعروف حق ، والنهى عن المنكر حق ، والعدل بين الخصوم حق ، وقيامُ الموظف بواجبه حق، والصدقُ فى المعاملة حق ، والأمانة فى الاخبار حق ، وحفظ السِّرِّ حق ، وكل نافعٍ فى الحياة حق ، ولما كان الحق مُرًّا على بعض النفوس ، لا تسيغه بسهولة ، أمرنا الله تعالى بالتواصى بالحق ، فكل إنسانٍ ينصح غيره أن يقومَ بالحق ، ويحافظَ على معالمه ورسومه ، وطرقه وحدوده ، فان رأيت شخصاً يريد أن يظلم ضعيفا أو يتّهِمَ بريئا ، أو يمالِئَ مجرما ، أو يحابىَ ظالما ، أو يعينَ راشيا أو يمجِّدَ عاصيا ، فوصّه بالحق ، وقل له : لا تظلمِ الضعفاء ولا تتهم الأبرياء ، ولا تمالئْ المجرمين ، ولا تحابِ الظالمين ، ولا تعن الراشين ، ولا تمجد العاصين ، وإن رأيت شخصا تهاون فى الصلاة ، أو منع الزكاة ، أو تعاطى خمرا ، أو تناول مُفْتِرا ، أو لعب قمارا ، أو قارف حراما، فوصه بالحق ، وكما توصيه بالحق إذا رأيته يشرع فى جريمة ، أو كان يعملها فوصه أن يكون منها على حذر ، وأن يقيم

ما أهمل من شرائع الدين ، وسنن خاتم النبيين ، ولا تظنن أنك تكون قائما بالتواصى بالحق ، وأنت للحق مجانب ، لا تقيمه فى خاصة نفسك ، ولا تعرج عليه بعملك ، بل نفِّذَ الوصية قبل أن توصى ، وأْتَمِرْ قبل أن تأمُر ، وانته قبل أن تنهىَ لئلا تكون ممن قال الله فيهم « أتأمُرون الناس بالبر وتنسَوْن أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » وكما تجب عليك وصيةُ غيرك بالحق ، يجب ذلك على غيرِك نحوك ، فان الغير قد يرى من عيوب الانسان ما لا يراه ، فيُبَصِّره بعيوبه ويهديه سواء السبيل

ولما كانت الحياةُ ملأى بالآلام والبلايا ، تصيبُ الانسانَ فى نفسه ، أو أهله وولده ، أو ماله وقومه ، وكان من عادةِ النفس الهَلَعُ والجزع لاسيما عند الصدمات الأولى « إن الانسان خلق هَلوعا . إذا مسَّه الشر جَزُوعا . وإذا مسه الخير منوعا — الخ » من أجل ذلك أمرنا الله بالصفة الخامسة صفة التواصى بالصبر ، فليوصِ كلٌّ منا أخاه بالصبر على المكاره ، تنتابهُ فى سبيل الدعوةِ إلى الحق ، والجهاد لإعلاءِ شأنه ، فاذا جالد الأعداء فليصبر وليصابر ، وإذا سُبَّ وأوذِى فليقابل ذلك بالثبات ، وإذا ثقل على نفسِ القيامُ بالواجب ، فليوطِّنْ نفسه عليه حتى يخف ويسهل ، وإذا كاد له أعداؤه ، وأرادوا الوقيعة به ، فليستعن بعُدَّةِ الصبر ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدُهم شيئا ، إن الله بما يعملونَ محيط » وإن ثار ثائرُ الشهوة فى نفسِك ، وأراد تعدِّيَ الحدود ، وتخطِّىَ المشروع ، فلا تُلن له القياد ، بل قِفْ له موقف البطلِ الشهم ، حتى تهبط ناره ، ويبرُدَ حرُّه ، وإن اتقدت جمرة الغضب فى صدرك وأرادت أن تدفعك إلى الانتقام ، والأخذِ بالثار ، فأطفئها بالحلم ، وتذكر العاقبة ، فان الذكرى مُسَكِّنة

ياهذا إن الصبرَ عُدَّةُ الشدائد ، ومُذيبُ المصائب ، وإن الماء مع لينِ ملمسِهِ يَشُقُّ له فى الصخورِ طريقا أَمَماً إذا طالت مجالدتُهُ ، ودامت مقارعتُه ، فالصبرُ نعم المعتصَمُ لمن توالت عليهم الكوارث ، وحلَّت بهم النوائب « وبشر الصابرين

الذين إذا أصابتْهم مصيبةٌ قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » وكما قلت لك : لا تأمر بالحق وأنت مجانبه . أقول لك لا تأمرْ بالصبر وأنت هَلُوع جزوع ، إذا مسَّك ضر صوَّتَّ وولولت ، وصحْتَ وشكوت ، وضاقت عليك الأرضُ بما رحُبت ، وظننت أن فى هذا المسِّ القاضية ، وما دَرَيتَ أن البلايا مربّية النفوس ، ومهذبة الشعوب ، ومكونة الرجال ، ما دريت أن الله جعل لكل نَبِيٍّ عدوا ، ولكل مصلح مناوئا ، يتقارعان ويتجالدان « فأما الزبد فيذهب جُفاءً ، وأما ماينفعُ الناسَ فيمكث فى الأرض »

يا هذا تلك هى الصفات الأربعُ التى كوَّن الله منها رأس مال الرابحين ، فهى إيمانٌ ، وصالحُ عمل ، وتواصٍ بالحق ، وتعاهدٌ على الصبر ، فمن كانت تجارتُه من أولئك فهى تجارةٌ رابحةٌ ، وصفقة ناجحة ، ربحاً غيرَ محدود ، ونجاحاً غير مجذوذ ومن كان رأسُ ماله من غيرها فسلعتُه بائرة ، وتجارتُه خاسرة ، وإنه لمحكوم عليه بالافلاس فى محكمة العدلِ الإلهية ، يوم لا تستأنف التجارات ، ولا تؤلف الشركات يوم « تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما عملت وهم لا يُظْلَمون »

فليتجر كلُّ امرئٍ فى تجارتين ، تجارة يُحَصِّل بها المال لسدِّ حاجات الحياة ، وتجارةٍ لسعادةِ النفس ، وإرثِ الفردوس ، ولئن خسرتَ فى الأولى للخطب سهل ، أما إن خسرت فى الثانية ، فقد خسرت الدنيا والآخرة ، فاحرص عليها الحرصَ كله ، وقل « ربنا آتِنا فى الدنيا حسنةً ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار »

النموذج الرابع

درس فى تفسير قوله تعالى

« قد أفلحَ المؤمنون. الذينَ هُمْ فى صلاتِهم خاشعون . والذين هُمْ عن اللغوِ مُعْرِضُون . والذين هم للزَّكاةِ فاعلون . والذين هم لفروجِهم حافظون . إلا على أزواجِهم أو ماملكت أيْمَانُهم فانهم غيرُ مَلُومين . فمن ابتغَى وراء ذلكَ فأُولئك هم العادون . والذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون . والذين هم على صلواتِهم يحافِظُون . أولئكَ هم الوارثون . الذين يَرِثُون الفِرْدَوْسَ هم فيها خالدون »

* * *

حكم ربُّنا بالفلاح ، والفوزِ والنجاح ، حكما محققا لاريب فيه ، لايقبل استئنافاً ولا نقضا ، ولا معارضةً ولا دفعا

حكم بالفلاحِ للمؤمنين ، الذين آمنوا به و برسولِه و بالنور الذى أنْزِلَ معه كتابِ الله الذى لايأتيه الباطلُ من بين يديه ولامن خلفِه ، كما آمنوا بيومِ الجزاء «يوم لا ينفعُ الظالمين معذرتُهم ، ولهم اللعنةُ ولهم سوء الدار» يومَ يقول المتقون « الحمدُ لله الذى أذهبَ عنا الحزَن، ان ربَّنا لغفورٌ شكور. الذى أحلَّنا دارَ المقَامَةِ من فضلِه ، لايمسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوب (١) » وقد ذكرالله من أوصافِهم ستَّ صِفات، من أجلِها استحقوا الفلاح والسعادة ، والحسنى وزيادة

(١) فالأولى خشوعُهم فى الصلاةِ ، فالجوارحُ ساكنة ، والقلوب خاضعة ، نسُوا كلَّ شىء فى صلاتِهم ، إلا ربَّهم الذى يرعاهم و يراقبهُم ، فهم يعرِفون أنهم قائمون بين يديه ، وأنَّه عليمٌ بما يَجْرِى فى صدورهم ، وما تتحدثُ به نفوسُهم ، وأنه يعرف منهم المخلِص والمنافق ، يعرِف من يقصِد بعملِه وجهَه ، ومن يرائى الناسَ

(١) النصب التعب واللغوب الاعياء

بعمله ، ليقالَ إنه من الطيبين المصلين ، عسى أن يصطاد من متاع الدنيا ما لا سبيلَ إليه ، لو لم يتظاهر بالورع والعبادة ، والتقوى والزهادة ، ويعلم الله أن بين جنبيه نفسا حريصةً على الدنيا ، تجدّ فى طلبها ولو بالمداهنة والخداع ، والملَق والنفاق ، أولئك فى قلوبهم مرض ، أولئك لم تخشعْ قلوبُهم ، أولئك لم تُقْبَل صلاتُهم ، فان الخشوعَ روحُ الصلاة ، متى فقدته كانت صلاةً ميتة ، لا صلةَ لها بحياة النعيم ، ليست الصلاةُ حركاتٍ رياضيةً فحسب ، ولكنها حركاتٌ نفسية ، حركاتٌ قلبية ، فمن لم يتحركْ قلبُه نحوَ الله ، يفكّر فى قوته وسلطانِه ، ورحمتِه وعذابه ، يفكر فى الكلام الذى يناجى به ربَّه ، وما حواه من المعانى ، واشتمله من العظات ، يفكر فى صدقِ وعدِه ووعيده ، وأن نارَه لا بُدَّ للمجرمين ، وجنّتَه لا مناصَ للمتقين — من لم يتحركْ قلبُه بذلك فهو يضحكُ على ربِّه ، ويستهزئ بكلمِه ، فهو أولى بسخطِ الله وغضبِه ، لا برضاه وعطفِه ، فليجتهد الانسانُ فى تخيُّر الأوقاتِ التى يخلو فيها من الشواغل ، يؤدى فيها صلاتَه ، ويقيم فيها عبادتَه ، وإذا كان رسولُ الله ﷺ نهانا عن الصلاةِ عند مدافعةِ الأخبثين [١] وأمر بتقديمِ الطعام على الصلاةِ إذا حضر فما ذاك إلا لأن هذا يحولُ دون الخشوع الذى هو عمادُ الصلاة ، والذى هو لُبُّها وقِوَامها ، فلنتخيرْ أوقات الفراغ — فى حدود الأوقاتِ المضروبة للصلاة — لأداء الصلاة ، وإذا دخلنا فيها تركنا الدنيا جانبا ، وأقبلنا على الله بكل جوارحنا ، ولنستعنْ على الخشوعِ بالتفكر فيما نتلوه من الآيات ، وما نقوله من العبارات ، ولنجاهد الوساوسَ ما استطعْنا ، ونُغالِب الشواغل ما قدرنا ، حتى يصفوَ القلب ، ويتمحضَ الاخلاصُ للربّ ، أولئك هم المصلون ، الذين تنفعهم صلاتُهم ، وتحولُ بينهم وبين الشهوات ، والوقوعِ فى المحرّمات ، فقد قال الله جل شأنه « إن الصلاةَ تَنْهى عن الفحشاءِ والمنكر ، ولذكر الله أكبر » وإننا لنرى كثيرا من الناس يصلون

(١) الأخبثان البول والغائط

obeikandl.com

ولـكنهم عن المنـكر لا يُقْلِعون ، أترى الله جل شأنه غيرَ صادق فى كلامِه ، قد تخلَّفَ إخباره ، أم نحن كاذبون فى صلاتِنا، نزعمُها الصلاةَ الحقة التى أمرنا اللهُ بها فى كتابِه ، وجعلها الفارقَ بين الـكفر والإيمان ، والواقع أنها ليست من الصـلاةِ فى شئ ، لأنها فقدت أساسَها الخشوعَ لله والخضوع ، وبرهانُ أنها ليست صلاةً أنها لم تمنعنا عن المنـكرِ نفعله ، والشرِّ نقترفُه، فالله صادقٌ فى قوله « ومن أصـدقُ من الله قِيـلا » ونحن الـكاذبون فى صلاتِنا، فلتكن صلاتُنا صدقا لا كذبا ، وجِدّا لا هزلا ، وإخلاصا لا نفاقا ـ تمنعنا من الشرور ، وتُورِثُنا دارَ الخلود

(٢) ومن صفات المؤمنين ، أنهم عن اللغو معرضون ، واللغوُ كل مالا فائدة فيـه ، لا للجسم ولا للنفس ، ولا للروح ولا للعقل ، فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيدُه فى حياتِه العاجلة ، أو حياتِه القابلة ، فتراه مُجِدًّا فى تحصيلِ الرزقِ لنفسِه ، وأهلِه وولدِه ، ليكف يده عن المسألة ، ويصونَ وجهَه عن بذلِ مائه ، ليحفظ على نفسِه العزةَ والـكرامة ، ويورث ذَويه العزة والنبالة ، تراه منصرفا لتكوينِ نفسِه بدرسٍ يتعلمه ، ودينٍ يتعرَّفُه، وعبادة يقيمُها ، وشريعةٍ ينشرُها ، فى أهلِه وأقربائِه ، وجيرانِه وخِلَّانِه ، لا ترى المؤمن قاتلاً وقته بالجلوسِ على المقاهى يلعب النرد ، أو الشطرنج ، أو يخوضُ فى أعراض الناس ، أو يتحدثُ فى شؤونهم بمالا يُجْدِى نفعا ، أو يتدخَّل فيما لا يعنيه من شؤون السياسة ، وليس من أربابها ، ولا من المنوط بهم دَرْسُها ، والدفاع عنها، ترى المؤمن هادئا ثابتا، صامتا ساكتا ، لا يتكلَّمُ إلا فى مفيد ، ولا يتحرَّكُ إلا فى نافع ، ولا يُفَـكِّر إلا فى منتج ، تراه إذا رأى عبثاً أو لغوا مَرَّ به مَرَّ الـكرام ، وإذا سمعه قال لأهله : سلام ، ولم يشتبك معهم فى حـديث أو مناقشة ، ولم يدخل معهم فى سخرية أو مازحة ، « وإذا مَرُّوا باللغوِ مَرُّوا كراما » « وإذا سمِعوا اللغوَ أعرضوا عنـه وقالوا : لنا أعمالُنا ولـكم أعمالُكم ، سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين »

(٣) ومن أعمال المؤمنين أنهم يؤدّون الزكاة ، ولا يبخلون بما آتاهم الله ، و يقولون : « ما عندكم ينفَدُ وما عند الله باق » فيطلبون سعادةَ الآخرة بالتنازل عن شئ من حُطام الدنيا ، وإنها للتجارة الرابحة ، والفكرة الراجحة ، وَلِمَ أدّخِرُ المال فى خزائنى وأمنعهُ عن السائلِ والمحروم ، وهو حقهما المعلوم ، أأدّخره حتى إذا حلّ الأجل المحتوم ، و بلغت الروحُ الحُلقوم ، تلقّاه بالبِشرِ الوارثون والأقربون ، وتمتعوا به فى الحياة وقَضَوُا اللذات والشهوات ، فى حين أتلقى جزاءه ، واستوفى عذابَه ، وأُطوّق بإثمه ، ويُحمَى علىّ فى ناره « ولا تحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم ، سيُطوّقون مابخلوا به يومَ القيامه ، ولله ميراث السمواتِ والأرض ، والله بما تعملون خبير » « والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيلِ الله فبشرهمْ بعذابٍ أليم . يوم يُحمَى عليها فى نارِ جهنم فتُكوَى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » فمن الحمقِ البين ، والسفهِ الواضح أن أسعِد غيرى بشقائى ، وأنعِّمَه ببلائى ، بل الحكمة فى أن يكونَ مالى سعادةً لى وللأقرباء ، ولذوى الحاجة الضعفاء ، فأمتعَ نفسى فى الحياة ، ولا أنسى حقّ الله ، « ولا تنسَ نصيبكَ من الدنيا ، وأحسنْ كما أحسنَ الله إليك » فلْيَنعَم ورثتى بمالى ، ولكن بعد أن أنعمَ به فى حياتى ، وأقضىَ به للناسِ حاجَتهم ، وأُنَفِّسَ به كروبَهم ، فأرث به النعيم بعد وفاتى ، ذلك شأنُ المؤمن لا يُلْهِيه المالُ عن التفكيرِ الصحيح ، ولا عن الحياةِ المقبلة ، فتراه يُعطِى كلّ ذى حقٍ حقَّه ، بعد أن يبدأ بنفسه ، ثم بمن يعول ، من غير تبذير ولا إسراف « وآتِ ذا القربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ، ولا تبذّرْ تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين ، وكان الشيطانُ لربِّه كفورا »

(٤) المؤمنون يحفظون فروجَهم مما حرّم الله عليهم ، فالله قد أحلّ لهم دائرةً طيبة شهية ، ليس فيها ضرر عليهم أو على غيرهم ، فلا يتعدّون محيطَ هذه الدائرة ، فهم قانعون بزوجاتٍ خيّرات طاهرات ، استحلّوهن بكلمةِ الله ، أو بإماء امتلكنها

أيمانُهم، أما ماوراء الزوجاتِ والملوكات ، فانهم لا يقْرَبونه ، وكيف يرضى المؤمنُ أن يجنيَ على عِرْضِ امرأة فى عصمة آخر ، فيثيرَ العداوة بينه و بين زوجها ، ويُفسِدَ عليه بيته ، ويشتتَ أسرةً كانت تتمتع بنعمةِ الاجتماع ، والتعاون على شئون الحياة ، وتثورَ العداوةُ بين هذا الزانى وأهلِ تلك المرأة فينتقموا منه لعِرْضِهم الذى انْتُهِك ، وحُرُماتِهم التى استبيحت ، وكثيرا ما يكون القضاء على الحياة جزاء ذلك ، فان العرضَ أغلى شئ عند النفوس الحرَّةِ الكريمة

هل يرضى المؤمنُ أن يَسْقِيَ ماءه زرعَ غيره فيُنْبِتَ أولادا ينتسبون إلى غير أبيهم ، ينفق عليهم زوج الزانية ويربيهم ، ظانا أنه يعمل فى زرعه ، وإنما هو زرعُ غيره فالذى زنى أضاع ماءه وأضاع أولاده ، والزوجُ الذى انْتُهِك عِرْضُ أهله، ظُلِم بالتعدى على فراشه ، و بانفاقه على غير ولده طولَ حياته ، و بارثه منه بعد وفاته ، فالزانى لص يسرق ثروة الناس فى حياتهم و بعد وفاتهم ، و إن كانت المرأة التى تعدى على شرفها غير متزوجة فقد أفسد حياتَها ، وصرف أنظار راغبي الزواج عنها ، فتعيش معيشة ذل ، لازوجَ يُحصِّنُها ، ولا عائل يعولها ، هذا إلى سوء السمعة ، وإلى الجناية على أهلها ، فيقفون موقف الانتقام منه أو من بنتهم ، وربما قَضَوْا على الحياتين ، و إن لم يقضوا وثبت ذلك بالطريق المشروع ، فإما جلد مائة ، وإما رجم يودى بالنفسين ، فالزنى عاقبتُه وخيمة ، ويكفى فى ذمه أن تيسير سبيله صرف الشبابَ عن الزواج ، ففسدت الفتيات ، وأصبحن عبئا ثقيلا على أهلهن ، وعلى المجتمع كله ، وأصبحت الفتاة الصالحة تودّ الزوجَ الذى يحصِّنُها ، ويحفظُ كرامتها ، ويُنْفِقُ عليها ويُكوِّن بها أسرةً تسعدُ فى حياتها ـ أصبحت تودُّ هذا الزوج فلا تجده ، وأصبح نماء الأمة فى ضعف ، وربما بادت الأممُ التى فشا فيها مرض الزنى ، وها هي ذى فرانسا آخذة فى النقصان ، ولابد أن تبيدَ إن استمرت فى فسوقها ، فالذين يتعدون دائرة الحلال إلى الحرام ظالمون جائرون ، ولعمرى إن الانسانَ ليدخُلُ المطعم فتعافُ نفسُه أن يأكُلَ من بقايا طعامٍ أكل منه غيرُه ، وربما انتهر محضِّر الطعام وسبه ،

فاذا كنت تأنفُ من طعام سبقك إليه غيرُك ، فكيف لا تأنفُ من امرأة هي مَوْرِدٌ للناس جميعا ، وربَّما نقلتْ من أمراضِهم إليك ما يُضِر بصحتك ، وربما أودَى المرضُ بحياتك ، وهل عنده ذَرَّةٌ من العقل والحكمة من يَدَع إناءه أعِدَّ له وحدَه ، لا يأكل منه غيرُه ، ويذهب إلى أوساخ الناس يتناولُ منها ، هل من العقل أن أدعَ امرأة أخلصت لى فى حبِّها ، وملأت بى قَلْبَهَا ، وقصرت علىَّ طَرْفَها ، إلى عاهر بَغِيّ ، تَزْعُمُ لكل واردٍ عليها أنه أحب الناس إليها ، وإنها لكاذبة آثمة ، هل أدعُ امرأةً هي سيدةُ بيتى ، ومربِّيةُ ولدى ، وأمينتى على مالى وعِرْضى ، وصاحبتى فى ليلى ونهارى ، وفى كلِّ حياتى ، إلى فاجرةٍ لا علاقةَ بينى و بينها ، الا علاقة البهيم بالبهيم ، تالله لقد برهن الزناةُ بأجلى برهان على سَخَفِ عقولهم ، وفسادِ فِطَرِهم ، بل على خروجِهم من شرفِ الانسانية ، إلى خسة الحيوانية ، لقد ضلّوا وما كانوا مهتدين

(٥) المؤمن من شأنه الوفاء بالوعود ، والمحافظةُ على العهود ، وحفظ الأمانات حتى يؤدِّيَها لأهلها كاملةً غير منقوصة ، فاذا وعدك الحضورَ فى ساعة معينة ، أو وعدَك إنجازَ عملٍ فى وقت محدود ، أو قضاء مهمة لك فى موعد مضروب ، وفَّى بما وعد فلا يتأخر عن الموعدِ ما وجد إلى الوفاءِ سبيلا ، فوعده صادق ، وكَلِمُهُ نافذ ، وعملُه منجز ، والناسُ إليه مرتاحة ، لا يكلِّفُهم مشقةَ الانتظار ، ولا يؤلمهم بالاخلاف ، وتأخيرِ الأعمال ، وإن ائتمنه غيره على سرٍّ كتمه ، أو على مال حفظه أو على عِرْضٍ صانه ، أو على عمل رعاه حقَّ رعايته ، أو على ولد أخلص فى خدمتِه والعملِ على مصلحتِه ، فهو أمينٌ على كلِّ ما وُكِلَ إليه أمرُهُ ، بل هو أمينٌ على شرعِ اللهِ الذى أنزله ، فلا يغيرفيه ولا يبدِّل ، ولا يتأخر عن العمل بوصاياه ، فهو لكل أمانةٍ حافظ ، و بكل عهدٍ قائم

(٦) المؤمنُ من شأنه المحافظةُ على الصلوات ، فهو يؤديها فى وقتها ، ولا يؤخِّرُها عن موعِدِها ، عملا بقوله تعالى « إن الصلاةَ كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا » فاذا سمع المؤذنَ يدعو إلى الصلاة تركَ الدنيا ومشاغلَها ، وهرولَ إلى بيوت أذِنَ الله

أن تُرْفَع ويذكرَ فيها اسمُه ، فيؤدى لله مافرضَ مع جماعات المسلمين ، وإن حدّثه الشيطان بالتلكؤ إلى آخرِ الوقت ، أو بجمع الصلوات رجع إلى نفسه عاتبا ، يقولُ لها: كيف تؤخرين أو تجمعين. وقد حتم الله الصلاة على الصحيح والمريض ، والقائم والقاعد بل حتمها على الجندى وهو يلاقى العدو ، ويستقبل رَصَاصَ بنادقه ، وضرباتِ سيوفه ، وقنابلَ مدافعه ، بل أمر بأن تقامَ الصلاة جماعة فى وقت الحرب ، فكيف تُؤَخِّر الصلاةَ عن وقتها ، وقد رزقكَ الله الصحةَ والعافية ، وأنت فى ساعةِ سِلْمٍ لا فى ساعةِ حرب ، فالمؤمن لا يسمحُ لنفسِه مطلقا بأداءِ الصلاةِ فى غيرِ وقتها الذى حدده الله ، ولقد أسف الرسول ﷺ أشدَّ الأسف لما تأخر به وبأصحابه النومُ إلى أن ضربتْهم الشمس وكان وَكَلَ إلى بعضِ أصحابه أن يوقظهم فغلبه النومُ كما غلبهم ـ أسِفَ الرسول مع أنهم ماأخروها عمدا ، وأبى أن يصلِّىَ فى هذا المكان الذى حصل فيه التأخير ، وارتحل إلى غيره فأقام فيه الصلاة

إن أداء الصلاة فى أوقاتها المحددة يعلمنا النظام فى العمل ، واحترام المواعيد ، وإنه لتذكرة للمتقين فى خمسة أوقات ، يتوبون فيها إلى الله مما أسلفوا ، ويُجَدِّدون صلتهم به إذا ألهتهم الدنيا عنه

إذا كنتَ أخى ممن يحبون الارث فارثُ الاموال إلى ضياع ، والدنيا بمن فيها إلى فناء ، فدونَكَ إرثا حقيقيا لا يزول عنه مِلْكُك ، ولا تنزعُ رقيتُه من يَدِك ، دونك إرثَ الفردوس التى فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، دونك هذا الارثَ الذى تخلد فى نعيمِه ، لا يدركك مرض أو كِبَر ، فتحرم من خيراته ، ولا يغلبُك على أمره قاهر ، فيحول بينك وبين ثمراته ، بل هو لنفسِك الصحيحة الفتية نعيم مقيم ، لا حد له ولا نهاية ، ولا أمد ولا غاية

ولكن لك ذلك إن تخلقت بأخلاق المؤمنين ، ونفذت وصايا الحكيم العليم ، وهل تجزون إلا ما كنتم تعملون

النموذج الخامس

فى تفسير سورة الماعون

بسم الله الرحمن الرحيم

«أرأيتَ الذى يكذّب بالدين . فذلك الذى يدُعُّ اليتيمَ . ولا يحُضُّ على طعامِ المسكينِ . فويلٌ للمصلين . الذين هم عن صلاتِهم ساهون . الذين هم يُراءون . ويمنعون الماعون »

هذه سورة من سُور القرآن ، آيها قليلة ، ومعانيها جزيلة ، وثمراتُها كثيرة ، لمن تدبّرها حقّ التدبر ، وعمل بما تضمّنته ، وما أظنكم إخوانى إلا متفقهين فى القرآن ، عاملين بما فيه من الأحكام ، فان شأنَ المؤمن أن يحترمَ القرآن ، وما احترامُه إلا الاقبالُ عليه بالتفهم ، والوقوفُ عند حدوده

يقول رب العالمين لنبيه محمد ﷺ هل رأيت يا محمد الشخص الذى يكذب بالدين ، فلا يقفُ عند ما رسم ، الذى يكذّب بالجزاء فى الدار الآخرة ، فلا يعتقدُ حسابا ، ولا ثوابا ولا عقابا ، فيسعى فى الأرض فسادا ، ويقول لنفسه : تمتعى فى الحياة بما تشائين ، واستوفى من اللذات ما تستطيعين ، ولو كان فى ذلك تعدٍّ على حقوق الناس ، وانتهاكٌ لحرماتهم ، وثلم لأعراضهم ، ويقول : إنمـا هى الحياةُ الدنيا تعقبُها نومةٌ لاقيام منها « أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا» فهو لايرجو ثوابا إن عمِل صالحا ، ولا يخشى عقابا إن اقترف سيئا ، فهو يطلق لنفسه العنان تعمل ما تشاء — إن كنت يا محمد لم تره ولم تعلمْه فأنا مخبرك به ومحدّثك عنـه ، لتبتعد عن سبيله ، وتُحذّر الناس من خبثه ، ومن سوء عمله ، فانه شرٌّ فى العالم ، ووباء عليه

obeikandi.com

المكذبُ بالدين هو الذى يَدُعُّ اليتيم ويزجره ، ويَنْهَره ويشتمه ، بلا ذنب جناه ، ولا إثم ارتكبه ، لا يريد بذلك تأديبَه ولا تربيتَه وتقويمه ، ينهرُ اليتيم ويهينُه ، وقد فقد أباه ، وحرم عائلا يرعاه ، فَقَدَ من كان يحنو عليه ، ويسعى لراحته ، يودُّ له الحياة الطيبة ، والسعادة الكاملة ، وإن شَقِيَ هو فى سبيل ذلك ، فقد أباه الشفيق ، ووالدَه الرحيم . فكان الأجدر بهذا الزاجر المهين ، أن يكون عليه عاطفا ، وأن يبدأه بالكلمة الطيبة ، تسلو بها نفسُه ، ويعودُ بها أنسه ، ويظن أن الله أبدله من أبيه أبا كريما ، وبرا رحيما ، وهل تظن أن ربَّنا ينهانا عن زجر اليتيم ، ويَعُدُّه من التكذيب بالدين ، وهو يَرْضَى منا أن نَهْضِمَ حقوقه ، ونبدِّدَ أموالَه ؟ إذا كانت الكلمةُ السيئة محرمةً علينا ، فماله أولى بالتحريم ، وحقوقه أولى بالرعاية ، فليتَّقِ الله أولئك الأوصياء الذين ينتهزون صِغَرَ اليتيم ، وغفلة الحكام ، أو الوصولَ إليهم بالرشوة ، أو بشفعاء السوء ، فيبدِّدُون أموالَ اليتامى ويأكلونها ظلما ، وإنما أكلوا نارا « إن الذينَ يأكُلُون أموالَ اليتامى ظلما إنما يأكُلون فى بطونِهم نارا وسَيَصْلَوْن سَعِيرا » فان كان اليتيمُ عاجزا عن المحاسبةِ والمراجعة ، والرقباء فى غفلة ، فما ربُّك بغافل عما يعملُ الظالمون ، ليَتَّقِ اللهَ هؤلاء الأوصياء ، وليعلموا أن الدهر قُلَّب ، وأنهم قديموتون ويتركون أولاداً صغارا ، فهل يَرْضَوْن لأوصياء أولادهم ، أن يعملوا في أموالهم ماعملوا فى أولادِ غيرهم « وليَخْشَ الذين لو تركوا من خَلْفِهم ذرِّيَّةً ضِعافا خافوا عليهم فَلْيَتَّقوا اللهَ وليقولوا قولا سديدا » وإن من الايمان أن أحِبَّ لغيرى ماأحِبُّ لنفسى ، فلأكن فى معاملةِ اليتامى كما أحبُّ فى معاملةِ أولادى ، لو تركتُهم ذرية ضعافا ، فعلىَّ أن اعتبر مالهم كمالى ، أدفعُ عنه العاديات ، وأنميه بالطرق المشروعة ، وأرزقُهم من ثمرته ، وأحفظُ عليهم رأس المالِ سليما ، أومضموما إليه ما قد يزيدُ عن نفقاتهم « ويسألونك عن اليتامى ؟ قل : إصلاحٌ لهم خير » وإن كنتُ غنيا تعففت عن الأجْرِ ، وإن كنت فقيرا أخذتُ من ماله مايكفينى بالمعروف « ومن كان غنيا فلْيَسْتَعْفِفْ ، ومن كان فقيرا فَلْيَأْكلْ بالمعروف »

وليحذر الوصى أن يخلِط مال اليتيم بمالِه ، ليأخذَ نصيبه بعدُ موفورا ، ويعطىَ اليتيمَ حظه مبخوسا ، فهو لم يخلطْ لمصلحةِ الصغير ، ولكن خلط ليسلُبَهُ ماله من حيث لا يشعر الناس ، فلا يكونُ منهم لوم ولا تعنيف ، فهو يريد أن يسلَمَ مِنْ ألسنتهم ولا يحب أن يسلمَ من عذاب الله « ولا تأكلوا أموالهَم إلى أموالِكم إنه كان حُوباً (١) كبيرا »

وهل تظن أيها القارئ أن ربَّنا يُشَدِّد علينا فى المحافظةِ على مال اليتيم وإنمائِه ، ويرضى منا أن نُهْمِل نفسه ، فلا نعلِّمها ولا نُرَبِّيها ، فتشبَّ نفسا جاهلة ، لا تعرف من علوم الحياة شيئا ، ولا من علوم الدين نَزْرا ، إن الله لا يرضى منا ذلك فلتكن عنايتُنا بنفسه أشدَّ من عنايتِنا بماله ، وهل أمرُنا بابتلاء اليتامى واختبارِهم إلا إرشاد لهم إلى طرق التجارة ، وحسنِ التصرف فيها ، فهو إشارة إلى تعليمهم علوم الحياة التى يكسِبون بها المال ، ليعيشوا عيشة سعيدة ، وهل قوله تعالى « قل إصلاحٌ لهم خير » إلا أمر للأوصياء بأن يُصْلِحوا نفوسهم ، ويربوها ويهذبوها ، وخيرُ تربية وتهذيب ما كان أساسه تعليمات الدين

فليحافظ الأوصياء على إحساس اليتامى وشعورهم فلا يجرحوه بكلمة بذيئة ، وليُحافِظُوا على أموالهم ، فلا يأكلوها إسرافا وبِدارا أن يكبَروا ، وليحافظوا على نفوسهم ، فيعملوا على إصلاحها ، وتقويم أخلاقها ، فان لم يحافِظوا فهم ممن كذَّب بالدين ، واستحقَّ العذاب المهين

المكذب بالدين هو الذى لا يَحُضُّ على طعام المسكين ، لا يحث غيرَه ولا يحث نفسه على إطعام المساكين ، الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم ، والغِنَى عزٌّ للنفس والفقرُ مذلةٌ لها ، فان كان ربك قد منَّ عليك بفضلٍ من المال ، فواسِ به المحتاجين ، وابدأ بالأقربين ، فانهم أولى بمعروفك ، وأحق بمواساتك ، وجيرانُك الذين يسكنون بجانبك ، أو فى شارعك ، أولى ممن بعُدت ديارهم ، فلا تبخلْ على

(١) الحوب الذنب

غيرك بمال ، أنت فى الحقيقة وكيل عليه وحارس ، وكّلك ربك فيه ، وأقامك حارساً عليه ، فهل تعصى أمر الموكّل فى ماله ، وهل تخالف الحاكم فيما وكل اليك رعايته ؟ إنك لا تعصى ولا تخالف ، فلا تعص الخالق ، وقد أطعت المخلوق ، فأنفقْ مما رزقك الله ، أنفقْ من مالٍ أنت تاركه قائما ، ومودّعه راحلا ، مودّعه يوم يودّعك الأقرباء والاخوان إلى قبرك ، مقرّك ومستودَعك ، وإذ ذاك يتقاسمه الورثةُ يتمتعون به وينتفعون ، ويُحَصِّلُون به ما يشتهون ، ولم تُحَصِّل به إلا اعذاباً تُقَاسِى آلامَهَ ، ونارا تصلَى سعيرَها ، أنفق يكنْ لك عند الناس ثناء عاطرا ، وعند الله عُدَّةً وذخرا ، ونعيماً مقيما ، وماء سَلْسَبِيلا . فان كنت من خَلَت أيديهم ،ونضبت خزائنهم ، فعليك كلمةً طيبة تنفع بها المسكين تسد بها عوَزَه ، وتقيمُ أوَدَه ، عليك أن تذهب إلى الأغنياء المُثْرِين ، وتحضهم على طعام المسكين ، تقول لهم : هذا فقير فقد المال والقوة ، فلا مُدَّخَر ينْفِق منه ، ولا قوة يجابُ بها رزقا ، ولا صنعة يبتغى منها أجرا ، فمن له فى الحياة إن لم تكونوا عونه وعضده ، تعطونه مما أفاء الله عليكم ، ومما غمرَكم به من واسع فضله ، وعظيم سيبه ، أتدَعُونَه يحرِّق أنيابَه على الأغنياء ، الذين كنزوا المال ، وحبَسوه عن ذوى الحاجات ، أتدعونه يملأ نفسَه عداوةً لكم ، وحقدا وغِلا على ما فى أيديكم ، أتدعونه إن كان من أولى القوة يَسطو على الأموال ينهبُها ويسرقها فيزولُ الأمن ، وينتشر الخوف ، فلا تنعم نفسٌ براحة ، ولا تذوق للنوم طعما ، وربما اقترفَ فى سبيلِ المال آثاما وشرورا ، قد تصل إلى إزهاقِ الأرواح البريئة ، أتدَعُون هذه النفسَ المسكينة ، تتحول إلى نفس شريرة ، يتطاير شررُها إلى المجتمع كُلّه ، فاذا أردتم إصلاحها بعدُ فلا تجدون إليه سبيلا ، ألا فسُدُّوا حاجتَها ، واقْضُوا على فقرها ، وحوِّلوها بعطائكم إلى نفوس تحافظ عليكم ، لأنها ترى فى حياتكم رأسَ مالٍ لها ، فتحافظُ عليها كما يحافظ المرء على مورد رزقه

فكل امرئ فى الحياة مكلَّفٌ بمساعدة المسكين ، إن كان غنيا فبماله ، و إن كان فقيرا فبحث الأغنياء ، فان لم يجدهم فبكلمة طيبة « و إمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاء رحمةٍ من ربِّك ترجوها فقلْ لهم قولاً مَيْسُوراً »

إن كان دَعُّ اليتيم ، وتركُ الحضِّ على طعام المسكين تكذيبا بالدين ، فالسهوُ عن الصلاةِ والمراءاةُ ومنع الماعونات من هذا الوادى فهلاكٌ للساهين ، هلاكٌ للمرائين هلاكٌ للمانعين

يصلى أناس بأجسامِهم وأعضائهم ، فيحركون ألسنَهم وشفاههم بالكلم ، و يرفعون أيديَهم مكبِّرين ، ويحنون ظهورهم راكعين ، وَيَخِرُّونَ الأذقان ساجدين ، ولكن قلوبُهُم لم تتحرك نحوَ الملأ الأعلى ، لم تتحرك نحوَ بارئها الذى تُصَلِّى له ، لم يُشعِروا نفوسَهم خوفَ اللهِ وعظمته ، وسلطانَه و بأسه ، يظهرون له الخضوع وقلوبهم نافرة يقرءون القرآن ولكن لا يتدبرون ، ويسبِّحون ولكن لا يفقهون تسبيحهم ، وقفوا أمامَ الله وفى بيتِه ، ولكنهم فى الحقيقة واقفون أمام مشاغلِهم ، مقيمون بأرواحِهم فى مساكنهم ، فالأفكار الدنيوية تتزاحم عليهم فى وقت الصلاه ، وقلما يذكرون أنهم واقفون بين يدى أحكم الحاكمين ، وأنه مُطَّلِعٌ على ضمائرهم ، وخواطرِ نفوسهم ، وجَوْلاتِ أذهانهم ، وأنه لاتهمه المظاهر ، ولكن ينظر إلى البواطن ، ينظر إلى الأرواح لا إلى الاشباح ، ينظر إلى القلوب المتزينة بمكارمِ الاخلاق لا إلى الاجسامِ المرتدية رفيع الثياب

أولئك لم تكتبْ لهم صلاة ، بلى قد كتبت ، ولكن بحروفٍ من نار تَطَّلِعُ على أفئدتهم ، وتُقَطِّعُ أمعاءهم ، فلا يَغْتَرَّنَّ مسلم بحركاتٍ جسمية ، لاتصحبُها حركاتٌ قلبية ، أو تصحبُها ولاكن للدنيا لا للدين ، وللشيطان لا للبر الرحيم ، فَلْيَجِدَّ المسلمُ فى دفعِ الشواغل ، ومغالبةِ الهواجس ، ولْيُفَكِّرْ فيما يقول ، ولْيعرِفْ أمامَ من وقف ، ولْيفقهْ من يناجى ويحادث ؟ لتكتبَ له الصلاةُ فرضا أدَّاه ، وثوابا اجتناه ، عسى أن يكونَ من المفلحين

وإن يكنْ ويلٌ لساهٍ عن الصلاة فويل لامرئٍ منافق لا يُخْلِصُ لله في عمله، ولا يَبْعَثُه من أعماقِ قلبه، ولا يُصْدِرُه عن نيةٍ صالحة، وطويةٍ صادقة، بل يعمل ما يعمل رئاء الناس ليمدحوه بالصلاةِ والزكاة، ويعدّوه في عِداد الطيبين المخلصين، وهو من الخبيثين المنافقين، يريد بنفاقه وريائه أن يرضَى الناسُ عنه، ورضاهم غايةٌ لا تدرك، يريد بريائه أن يصطادَ مصالحَه بأحبولة صلاحِه المكذوب، وربما صاد ولكن صيده للدنيا، وفي الآخرة تصطادُه لظى، وربما كشفت الحوادثُ عما طوَى، ألا أنّ ما صدر من الأعمالِ عن رياء لا يدوم، لأن صاحبه يعمَلُه ما دام الناسُ يرون، فان غفلوا عنه رجع إلى الافساد والايذاء، فهو ذو نفس خبيثة متلونة، لا يرجى منها خير، قد استحلّت التلبيسَ على الناس والتمويه، أولئكَ في ضلال مبين، أولئك من الشياطين، أما النفس المخلصة فأعمالُها دائمة، غاب الناس أم حضروا، فلاجرَمَ كانت مُتَقَبَّلَة، عند ربهم مكرمة، ولا جرم كان لأولئك الويلُ والعذاب الهون، كما هو للذين يمنعون الماعون، فلا ينفعون الناس بمال أو جاه، أو حرفة أو صنعة، أو علم تعلموه، ورأى ناضج أحكموه، بل كل ما عندهم من العطايا والمزايا حجرٌ على أنفسهم، لا ينفقون منه على ذوى الحاجة إليه، وما هذا شأنُ المؤمن، شأنُه البذلُ والعطاء مما رزقه الله من خيرات هذه الحياة، فَلْيَحْرِصِ المؤمنُ على سلامة دينه، فَلْيَتْرَعَ اليتيمَ والمسكين، وليخلص لله في صلاته وأعماله، وليسع في خير الناس أجمعين « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

النموذج السادس

فى تفسير سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

« والضُّحَى والليلِ إذا سجَى . ماوَدَّعَكَ ربُّك وما قَلَى . ولَلآخرةُ خيرٌ لك من الأولى . ولَسوفَ يُعطِيكَ ربُّك فترضى . ألم يَجِدْكَ يتيما فآوَى . ووجدك ضَالاًّ فهدى . ووَجَدَكَ عائلاً فأغنى . فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ . وأمَّا السائلَ فلا تَنْهَر . وأمَّا بنعمَةِ ربِّكَ فحدِّثْ »

غاب رُوحُ القدس جبريلُ بالوحى عن النبى ﷺ مُدّةً فشقَّ ذلك على الرسول ﷺ وخَشِيَ أن يكون ربُّه تركه بعد أن شرَّفه بالوحى والرسالةِ إلى الناسِ كافَّة ، وجعله خاتمَ النبيين ، والنَّفْسُ الطيبة إذا غاب عنهامرشدُها تشوفت إليه ، وربما اشتدَّ الشوقُ فآلمها وأضناها ، وكذلك كان رسولُ الله ﷺ فأقسم له ربُّه بالضُّحَى والليل أنه ما وَدَّعَه وماقلاه ، وأنه كلَّ يوم فى علو وازدياد حتى يصلَ إلى ذِروة الكمالِ الانسانى

أقسم الله بأمرين بالضحى والليل ، وماأقسم بهما إلالخطورتهما ، وعلوّشأنهما ، بما يُفيضَانِ على الانسان من الخيرات ، ويحققان له من المصالح ، فالضحى هو الوقتُ الذى ينبسط فيه ضوء الشمس فيستطيع كلُّ ذى حرفةٍ وصنعةٍ ، وكلُّ عامل أن يؤدىَ عملَه ويتقنه ، وإنه لضوء عظيمٌ يَعُمُّ العالمَ كلّه ينبعث عن مصباح واحد يُرسل أشعَّتَه للمخلوقات كلِّها ، فاذا بظلامِها نور ، وإذا بلباسِها الأسود قد تحوّل إلى جلبابٍ أبيض ، وأن الأنوار التى اخترعها البشرغازيةً وكهربائيةً وغيرَها لتضل فى ضوء الشمس وتمحى ، حتى إنك لا تُبصِرُها إذا ابتعدتَ عنها قليلا ، وأن الأنوار الصناعية لتكلف العالم عشراتِ الملايين من الجنيهات كل عام ثم هى

مع ذلك لا تَعُمُّ الكونَ كلَّه ولا يستطيع ثمنها كلُّ الناس ، فأكثرهم منها محروم فضوء الشمس نعمة عامة لا ندفع لها ثمنا ولا أجرا ، ولكن تستدعى منا شكرا جزيلا ولكن ماشكرنا لله نعمة غمرَنَا بنورها ، وكما أن للشمس علينا يداً فى انارتها عالمنا بالنهار ، فلحرارتها أيدٍ كثيرة على الحيوانِ والنبات ، فهى عاملٌ مهمٌّ فى نموّهما ، و بلوغِهما الحدَّ الذى يُنْتَفَع فيه بهما ، فمن أجل ذلك أقسم الله بالضحى تنبيها لنا على صنيعِهِ الجميل معنا ، وكذلك أقسم بالليل إذا سكَن ، والليل سِتَارٌ يستر به الانسان عينيه عن الشواغل ، فيأتيه النومُ الذى هو راحةُ الأجسام ، و باعثُ القوة والنشاط فيها ، وسكونُ الليل سكونٌ للانسان وهدوء ، وإبعاد له عن الصياح والضوضاء ، فيستريحُ من عَناءِ العمل راحةً حقيقية ، لا تزعجه فيها جَلَبة الأعمال ، ولا أصواتُ الحيوانِ والانسان ، ولا صيحاتُ العُدَدِ والآلات ، وكما يحلو النوم فى ساعةِ السكون والهدوء ، يحلو القيامُ للأبرار المتقين ، والعُبَّاد المتهجّدين ، فبعد أن يُعطُوا جسمَهم قِسْطاً من الراحة تحت سِتارِ الليل ، وفى جوِّه الهادئ الساكن ، تنبو بهم مضاجعُهم ، وتثيرُهم إلى مناجاة ربهم ، والقيامِ بصلواتهم ، فيصْدُرُ عن نفوسِهم ، وقد صفت وارتاحت ، وخلت من المشاغل - يصدر عنها دعاء منبعثٌ عن إخلاص فيصعدُ إلى السماء لا يحجبه حجاب ، فيتقبّله ربُّ قبولا حسنا « تتجافى جنوبُهم عن المضاجعِ يدعون ربَّهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم يُنْفِقُون . فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعين جزاء بما كانوا يعملون » حقيقةً يلذُّ للعُبَّادِ القيامُ فى سحر الليل ، ويجدون فى مناجاةِ الاله من السرور والانشراح مالا يحلم به عُبَّادُ الشهوات ، الذين انغمسوا فى المترفات ، فأسهروا ليلَهم ، و بدَّلوا سكونَه حركة ، وهدوءه جلبة ، أولئك يبدلون خَلْق الله ، فيسهرون إذا لَذَّ النوم وطاب ، ودخل وقتُه المعتاد ، وقتُ الظلام وانقطاعِ الحركة العامة ، وينامون إذا قام العُبَّادُ ليناجوا ربَّ العالمين ، ويفكّروا فى العالم ، سمائه وأرضِه ، نجومِه وكواكبِه ليفكروا فى ذلك السكونِ الشامل والجوّ الهادئ فيدركوا الفكر الصائبة ، والآراء السديدة فتزداد

فى نفوسهم عظمة الإله فيخشوا عذابه إن خالفوا أمْرَه ، ويرجوا عدلَه ورحمته إن استقاموا على طريقه

أقسم الله بالضحى والليل على أنه ما ودَّع محمدا وما تركه ، وأنه ما قلاه ، ولا أبغضه ، بل لا زالت عنايتُه به قائمة ، ورعايتُه له شاملة ، وحبُّ الله له فى ازدياد ، فكلما جاهد فى الدعوة ، وجَدَّ فى العملِ الصالح والخير العام ازداد من ربه قربا ، وازداد عند الله حبًّا ، وكيفَ يتركه وقد تخيَّره من خلقه ، واصطفاه من بينِ من حملت الأرض ليكون رسولَهُ إلى العالمِ كلِّه ، وليختِمَ به زمرة الأنبياء ، ويجعله عَلَماً بين يدى الساعة ، كيف يتركه ولم يُقَصِّر فى واجب ، ولم يتوانَ فى إرشاد ، بل حَمَّله الله عِبْءَ الرسالة — وإنه لحمل عظيم — فقام به خيرَ قيام ، فدعا إلى ربِّه سرا وجهارا ، ليلا ونهارا ، دعا إليه بقولهوعظتِه ، كما دعا إليه بخلُقِه وعملِه ، فلاجرم كانت له عند ربِّ الحسنى ، وقد أخبره الله بأن آخرة أمره خيرٌ من بدايته ، لأن المجاهدين يتحمَّلون آلاما كثيرة ، ومشاقَّ عظيمة فى بداية الدعوة ، فأنصارُهم قليلون أو مفقودون ، وأعداؤُهم أقوياء مشاكسون ، فوجئوا بما خالف عقائدهم ، ونافى عاداتهم ، فهم يهبُّون فى وجه الداعى انتصارا لرأيهم ، ودفاعا عن باطلهم ، وكلما تقدَّمت الدعوة وانتشر أمرها ، وذاع صِيتُها ، وازداد أنصارُها ، قويَتْ نفس الداعى فشمَّر عن ساعدِ الجد ، وجاهد وجالد ، حتى تكون كلمةُ الله هى العليا ، وكلمةُ الذين كفروا هى السفلى ، فاذا ما تمَّت له الكلمة ، وأتاه الأعداء صاغرين مستسلمين ، ارتفع شأنُه ، وعظُم أمره ،وعلا ذكره ، فلا عجب أن كانت خاتمة الأنبياء والمرسلين ، والهداة المرشدين ، والدعاة المصلحين — خيرا من بدايتهم ، فهم يَرْقَوْن كلَّ يومٍ سُلَّما ، حتى يصلوا إلى ذِروة المجد ، وسماءِ العزة ، وعظمةِ الملك ، لا أقول مُلْكَ الأجسام ، ولكن مُلْكُ الأرواح ، وإنه لملكٌ الحقيق ، الذى ينبغى السعى فيه ، والعمل على نواله وإدراكه

ولقد وعده ربُّه أن يُعْطِيَه بَعْدُ ما يرضيه ، ولقد أعطاه مئات الملايين من البشر ، يدينون بدينِه ، ويخلصون له المحبة ، ويصلّون عليه ويسلّمون كلَّ يومٍ عشراتِ المرات ، ولسوف يكون مقامُه فى يومِ القيامة المقامَ المحمود الذى يحمده فيه الأولون والآخرون ، ولقد أعدَّ الله له فى الجنة أعلى الدرجات مكافأة له على ثلاثٍ وعشرين سنة قضاها فى الدعوة إلى الحق ، والقضاءِ على الباطل ، حتى زلزل بنيانَه ، وأتى عليهِ من قواعدِه ، فزالت دولةُ المشركين ، وحَلَّتْ محلَّها دولة الموحّدين ، رحَلَتْ دولةُ الظالمين المجرمين ، وحلَّتْ فى مكانها دولةُ العادلين المتقين زال أنصارُ الشيطان ، وخلفهم أنصارُ الرحمن ، خلق محمدٌ من وحدته أمة ، وكوَّن من فردِه دولة ، ومن بلدِه القاحل ، وقُطْرِه الجدب ممالك عامرة ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا كان هذا عَمَلَه وهذا سَعْيَه وجِدَّه ، فلم لا يكون فى أسمى الدرجات ، وأرفع المقامات ، إنه بذلك لجدير ، وإنه لعلى خلق عظيم

ولقد أقام الله له البرهان على أنه لا يزال فى رعايته بما أفاض عليه قبل من مننه وعطاياه فقال له : ألم يجدْك يتيما فآوى . فقد محمدٌ أباه وهو فى بطنِ أمه ، ولم يكد يبلغُ ستا أو سبعا حتى رحلت أمه ، فآواه جده عبد المطلب ، ثم عمه أبو طالب ، فكانا يقومان بمصالحه كما يقوم الأبوان ، ثم آوته خديجة فكانت له زوجاً مخلصة ، وقرينة صالحة وقدمت له مالَها ، فأبى أن يأكلَ منه من غير سعى له ، وجِدٍّ فيه فكان يتجر به ليأكل من ثمرِ يده ، وهكذا النفوس العالية ، ولما دخل الناسُ فى دينه كان كلُّ مسلمٍ له دِرْعاً وحصنا ، كان يَفديه بنفسِه ومالِه وولدِه ، فهل بعد ذلك إيواء وإكرام ؟ وكذلك وجده ضالاً فهداه ، فما كان يدرى ما الكتابُ ولا الايمان ، وما كان يعرفُ هذه الشريعةَ المطهرة ، الكاملة العادلة ، وما كان يدرِى الطريقَ الذى يسلكُه لاصلاحِ العالم وهدايته ، وإخراجِه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، ومن عبادةِ الأوثان إلى عبادة الرحمن ، ما كان يعرفُ كيف يتصلُ بالملأ الأعلى ، ويعرف تاريخَ الأمم التى انقطعت أخبارها ، وعبثَ

الزمانُ بآثارها ، ما كان يعرفُ ذلك كلَّه ، فمنَّ الله عليه بالرسالةُ ، ووصلَ رُوحه بالملأ الأعلى ، وأرشده إلى معالِم الهداية ، وطرق الارشاد ، وهذب نفسَه ورباها ليستطيع بذلك هدايةَ العالم وتربيته ، والسَّيْرَ به نحو السعادةِ فى الحياة الدنيا ، والحياةِ الأخرى

وكذلك وجده الله عائلاً فأغناه ، فبعد أن كان لا يملك من حُطامِ الدنيا شيئا ، أصبحت خزينةُ المسلمين تحت يده، ولكنه ورِّبك ماأخذمنها إلاالكفاية ، فما تناول مرتباً عظيما ليُنْفِقَ منه ويكنز ، بل كان يأخذ النزر اليسير مما يسدُّ به حاجتَه ، وحاجةَ أهله وأولاده ، وما كان محمدٌ رجلَ دنيا ، يلهيه التمتعُ بالشهوات ، عن القيام بالواجبات ، بل كانت لذتُه الكبرى فى إحقاقِ الحق ، وإبطال الباطل وكبح النفوس الشاردة ، والأرواح النافرة ، وردها إلى سبيل الله وصراطه ، وماسبيلُه إلا قرآنُه ودينُه ، فكانت لذته في نشرِ المبادئ ، وتربية الأفرادِ والجماعات ، وإنها للَّذةُ الحقة ، التي لا تعقِب ألما

ولقد طلب الله منه أن يشكر له نعمَه العظيمة بما يلائمها ويناسبها ، فقال له جل شأنه « فأما اليتيمَ فلا تقهر » فنهاه عن قهر اليتيم وإذلاله بل عليه أن يُرَاعِيَ يُتْمَهَ ، ويسعى فى مصلحته ، يعينُه بالمال ، ويتولاَّه بالتربية ، ويُنَحى عنه كلمَةَ السوء ، وإن كانت له ثروةٌ حافظ عليها ونمَّاها ، وأنفق عليه من ثمرها ، ونهاه عن نَهْرِ السائل وزجره ، فان سأله سائل تَفَهَّمَ سؤاله ، وأجابه بالحسنى ، وعلمه مالم يكن يعلم ، وأرشده إلى خير الطرق ، وإن سئل مالاً أعطى مما رزقه الله ، فان لم يكن شيء فكلمةٌ طيبة ، وقولٌ معروفٌ خير من صدقة يتبعها أذى ، وأمره أن يُحَدِّثَ بنعمةِ ربِّه ، ونعمُ ربه عليه كثيرة ، فقد منَّ عليه بالمال ، فلْيُنْفِقْ مما رزقه الله لدفع حاجاتِ الأفراد ، وجلبِ المصالح للجماعات ، ومنَّ عليهِ بالرسالة فليحدِّث الناسَ بها وليدعُهم إليها ، وليَشْرَحها شرحا يدعو إلى العملِ بها ، وسلوكِ سبيلِها

ليفعل كلٌّ ذلك شكرا لله على نعمة الايواء بعد اليُتْم ، والهداية بعد الضلالة ، والغنى بعد الفقر ، ولقد قامَ الرسولُ بواجبِ الشكر وكثيرا ما كان يقوم بالليل حتى تَرِمَ قدماه ، خوفا من الله ، ورهبةً من عقابه ، ورغبةً فى ثوابه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان

النموذج السابع

درس فى شرح الحديث الآتى

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذاتَ يومٍ المسجد ، فاذا هو برجلٍ من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : ياأبا أمامة مالى أراك جالساً فى المسجد فى غيرِ وقت صلاة ؟ قال : همومٌ لزمتنى وديونٌ يارسولَ الله ، فقال : ألا أعلّمك كلاماً إذا قلتَه أذهب الله عزّ وجلّ همّك ، وقضى عنك دَيْنَك ، فقال : بَلَى يا رسولَ الله . قال : قلْ إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ : اللهم إنِّى أعوذُ بك من الهمِّ والحُزْن ، وأعوذ بك من العَجْزِ والكسل ، وأعوذُ بك من البُخْلِ والجُبْن ، وأعوذُ بك من غَلَبَةِ الدَّيْن وقهر الرجال . قال : فقلت ذلك فأذهب الله همِّى ، وقَضَى عنى دينى — رواه أبو داود

روى أبو سعيد الخدري وهو صحابي جليل ممن كانوا فى عصره ﷺ أن نبيَّنا وحبيبنا ، وإمامَنا وقدوتَنا ، رسولَ الله إلينا دخل المسجدَ فى يوم من الأيام فوجد فيه رجلا من الأنصار ، الذين آوَوْا رسول الله ﷺ وأسكنوه فى بلدهم ، ونصروه بأنفسِهم وأموالهم ، وكان انتشار الاسلام على أيديهم ، وهذا الرجل اسمه أبو أمامة كان جالسا فى المسجد ، فسأله الرسول ﷺ وقال له : مالى أراك جالسا فى المسجد فى غيرِ وقت صلاة ؟ إذ المساجد ليست بيوتاً للسكنى والاقامة ، ولكنها أماكنُ للذكر والعبادة ، وإقامةِ الصلوات ، فكان المسلمون يحضُرون إليها فى أوقات

الصلاة ، ويذهبون فى طلب المعاش فى غيرِ وقتها ، أو يستريحون فى بيوتهم ، بين أهليهم وأولادِهم ، فأجابه أبو أمامة ، وقال لدىَّ هموم وأحزان ، وعلى ديونٌ وأموال ، جعلتنى أتركُ الناسَ وأجلسُ فى المسجد فى غير وقت صلاة ، فعرض عليه الرسول ﷺ أن يعلمَه كلماتٍ إذا قالها فى الصباح والمساء زالت عنه الهموم والأحزان ، وأصبح مرتاح البال ، مطمئن النفس ، وقضيت عنه الديونُ التى أثقلَه حملُها ، وشغله التفكيرُ فيها ، ونغَّصت عليه المعيشة ، وأزالت النومَ عن جُفونِه : فقال : يارسول الله : أحبُّ أن تعلّمَنى هذه الكلمات ، حتى يعودَ إلى نفسى انشراحُها وسرورُها ، وأجدُنى حُرًّا لست مأسورا لدائن ، يُهَدّدنى كلَّ ساعة ، ويؤلمنى بقوارصِ كلِمِه ، ولواذع عباراته ، فقال له الرسول ﷺ قل فى وقت الصباح الذى ارتحل فيه الليلُ وحل محله النهار ، وفى وقتِ المساء الذى ذهب فيه وقتُ المعاش وحل وقتُ السكونِ والراحة ، قل فى هذين الوقتين العظيمين اللذين يتبدل فيهما حالُ العالم من ظلمةٍ إلى نور ، ومن سكون إلى حركة ، ومن شمسٍ طالعة إلى قمرٍ منير ، ونجومٍ هاديةٍ ، ومن تقلُّبٍ فى شؤون الحياة إلى استراحة من عَناء العمل ، ونومٍ يستفيدُ فيه الجسمُ قوته ونشاطه ، قل فى هذين الوقتين : اللهمَّ إنى أعوذُ بك من الهمِّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبةِ الدين وقهر الرجال ، فقال هذه الكلمات أبو أمامة ، فأذهب الله عنه الهموم ، وقَضَى عنه الديون

فاذا أردنا أن نكونَ فى حياتنا منعَّمين ، ومن همومِ الدنيا بعيدين ، إذا أردنا أن نكونَ خالين من الديون ، ومن استعبادِ الدائنين ، فلندعُ الله تعالى فى صباحِنا ومسائِنا ، بهذه الدعوة المباركة ، التى علمها لنا خيرُ البشر ، ولكنَّ الدعاء بها لا يفيد إلا إذا فهمناها حقَّ الفهم ، وعرفنا ما فى هذه الأشياء من المضار ، وعُذْنا بالله من شرِّها ، وسوءِ أثرها ، وإنى أفهمُها لكم معشرَ الحاضرين واحدة واحدة وأرجو أن تفتحوا لشرحى آذانكم ، وأن تأذنوا له بالقرارِ فى نفوسكم ، حتى يكونُ

شرحا مثمراً لكم ، وداعيا لرحمة الله بكم ، هذه أمور ثمانية أمرنا الرسول أن نتعوذ منها ، وما يتعوذ الرسول إلا من الشرور ، فهى كلها شر لا خير فيها فالواجب على المسلم أن يكون بعيدا عنها

فأولها وثانيها الهم والحزن أما الهم والقلق فانه يكون فى الأمور المهمة المقبلة التى يود الانسان حصولها ، أو يخاف وقوعها وشرها ، كطالب ملك الهم نفسه ، وشغل القلق قلبه ، لانه مقبل على امتحان لنيل شهادة الكفاءة أو « البكالوريا » أوشهادة عالية ، فتراه مشغول الفكر ، كثيرا مايحدثك عن الامتحان وصعوباته ، والراسبين فيه والناجحين ، فهذا فى الحقيقة يضيع وقته فى غير مفيد ، ويشغل باله بما لايجدى ، وكان خيرا له أن يجد فى دروسه ، ويدع الأفكار جانبا ، ويكل الأمر إلى الله ، الذي لا ينسى العاملين المجدين ، ولا يخذل المجاهدين ، والذى لاينصر الكسالى المقصرين ، وكصاحب قضية تراه مهموما بنتيجتها يخاف أن يحكم عليه فيها ، ينتحى من الناس ناحية ويطلق للتفكير العنان ، وكلما قابل صديقا أوقريبا أفضى إليه بهمومه ، وبالخواطر التى تشغله ، والنتائج التى يحذرها ، وهكذا يمضى وقته فى القيل والقال ، فيقصر فى أداء الواجبات ، ويضعف نفسه القوية ، وإرادته الفتية ، ويتقاعد عن العمل الذى يقيه شر القضاء ، وكان أولى به أن يفكر فى توكيل محام نابه ، يحسن المدافعة عن الحق ، والمحافظة عليه ، وأن يعد كل المستندات التى تنجحه فى سعيه ، وتجعله يفوز بخصمه ، وأن يبحث عن الشهود الذين ينصرون حقه على باطل من يناوئه ، كان أولى به أن يقدر الحكم عليه ، ويتخذ السبل العملية التى تخفف وقعه ، أو تذيب ألمه ، أما أن يصرف وقته فى هموم وخواطر ، وأفكار وهواجس ، ويترك لخصمه فرصة يتمكن فيهامن تدبير المكائد له ، والجد فى إحباط مسعاه - فذلك مالا يليق بالمسلم وقل مثل ذلك فى سائر الناس الذين لهم آمال شغلوا بالكلام فيها ، والتحديث عنها عن العمل لنيلها ، والجد فى سبيلها ، أو يخشون قوارع تحل بهم ، أونوائب تصيبهم ،

فطارت عقولهم جزعا ، ونفوسهم هلعا من شر ما يتوقعون ، وكان خليقا بهم أن يُعِدُّوا للنوائب عُدَّتها ، وللشدائد وقايتها ، وأن يكونَ تفكيرهم فى الوسائل المنجية من الشر ، أو المُحَوِّلة لمجراه ، أو المخففة من صدماته

فمن أجل أن الهم مَضْيَعَة للوقت فى غير مفيد ، ومن أجل أنه داعٍ للتقصير فى الواجب ، وأنه تقاعدٌ عن التدبيرِ النافع لنيلِ الخير المرجُوّ ، أو تجنبِ الشر المحذور ، من أجل ذلك تعوَّذ منه الرسول ﷺ كما تعوذ من الحزن ، والحزن إنما يكون على أمرٍ مضى كمحبوبٍ فات نواله ، أو ضرٍّ نزلَ به ، فهذا أيضا مذموم وقد نهانا الله عنه بقوله « ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا » و بقوله حكاية عن رسوله « لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معَنَا » فالمؤمن يُسلِّم أمرَه لله ، و يرضى بما فعل « و بشِّر الصابرين ، الذين إذا أصابَتْهم مُصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولئك هم المهتدون » لو كان الحزن يَرُدُّ فائتا أو يدفع حاصلا لكنا فيه معذورين ، ولكنه حرقٌ للدم ، ومضيعةٌ للوقت ، وسُخط على القضاء ، وتعلُّقٌ بما لا سبيل إليه ، وتكاسلٌ عن عملٍ يُنْسِي المصيبة ، أو يخفِّفُ ألمها ، و يبدِّد سُحُبَها فمن أجل هذا تعوذ منه الرسول ﷺ فان أُصِبْتَ فى زوجك أو ولدِك ، أو وظيفتك أو عملك ، أو صديقك أو قريبك ، أو انتابك مرض ، أو لازمتك عاهة ، أو اجتاحت مالك جائحة ، أو ذهبت به كارثة ، أو اتُّهِمْتَ بما أنت منه بَرَاء ، أو حُكِم عليك ظلما بغرامةٍ أو سجن — إن أصابكَ شئٌ من ذلك فادَّرع بالصبر ، واعلم أن ذلك مقدر عليك فى الأزل ، وأن ذلك ما كان لِيخطئك « ما أصابَ مِن مصيبةٍ فى الأرض ولا فى أنفسِكم إلا فى كتابٍ من قبلِ أن نبرأها [(١)] إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسَوْا [(٢)] على مافاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » واعلم أن ما ينتابُك من النوائب ، فاما أن يكون عقاباً على ذنبٍ اجترحتَه ، أو إثم اقترفتَه فهو تكفير لسيئاتك ، وتطهيرٌ لنفسك ، فاحمد الله أن جعل عقابك فى الدنيا دون

(١) نخلقها (٢) تحزنوا

الآخرة « ولعذاب الآخرة أكبرُ لو كانوا يعلمون » و إما أن يكون ابتلاء من الله وامتحاناً ، ليعرف مكانتك من الثبات ، ومنزلتَكَ من الصبر ، وقوةَ مقاومتِك للشدائد ، ودرجةَ تحمّلِك للكوارث ، فان كانت نفسُك ضعيفة ، و إرادتُك محلولة فلستَ الرجلَ يستحقُّ رعايةَ الله وعطفه ، ومحبتَه وقربَه ، وإن كنت تُمرّ الشدائد عليك كأنها لم تنزل بك ، ولم تُصْلِك نارها ، يذيبها صبرُك ، وتُفرّقها شجاعتك عَلِمَ فيكَ النفس العالية ، والارادة الماضية ، وقوة المقارعةِ للخطوب ، والمصابرة للكروب ، فأفاضَ عليكَ من نعمِه ، وأمدّك بجنوده ، وزادك ثباتا إلى ثباتك ، وصبرا على صبرك ، وفى نزول البلايا عقاباً على السيئات جاء قوله تعالى « وما أصابكم من مُصيبةٍ فبما كسَبَتْ أيديكم ، ويعفو عن كثير » وفى نزولها امتحاناً واختبارا جاء قوله « ولنبلوَنّكم بشئ من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفسِ والثمرات وبَشّرْ الصابرين » وقوله « أحسبَ الناسُ أن يُتْرَكوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفْتَنون . ولقد فتَنّا الذين من قبلهم فليعْلَمَنّ اللهُ الذين صدَقوا ، وليَعْلَمَنّ الكاذبين » فلا تحزن أيها الأخُ ولا تجزع فان شأن المؤمن الشكر إن نزلت به سراء ، والصبر إن نزلت به ضراء ، أمرُه كلُّه خير كما حدثنا رسول الله ﷺ

الثالثُ والرابع مما تعوّذَ منه النبى ﷺ العجزُ والكسل ، والأول عدم القدرة على الشئ ، والثانى التقاعدُ عنه مع استطاعته ، و إذا علمتَ أن بالعمل مكانةَ الانسانِ فى هذه الحياة ، وعلوَّه ورفعتَه ، وعلمت أن به تكونُ السعادةُ فى الآخرة ، والفوز بالنعيم المقيم ، والارثِ الخالد فى جنّات النعيم — إذا علمت أن بالعمل سعادةَ المرء فى دنياه وأخراه ، وأن العجزَ والكسلَ مُقْعِدان عن العمل — أدركتَ أنهما شرٌّ مستطير إذا رُزِئَ بهما إنسان لا ترجى له سعادة فى أولاه وأخراه « خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخُسْرانُ المبين » وبجانبة العجز تكون بجانبة أسبابه فلا يعملُ الانسانُ عملا ، أو يرتكبُ أمرا خَطِرا ، من شأنه أن

يذهبَ ببعضِ أعضائِه العاملة ، أومن شأنِه أن يسلبَه القدرة ويجعلَه من العجزة ، الذين لايستطيعون حيلةً ولايهتدون سبيلا ، فالذى يُجهِد قُوَاه ، ويُحَمِّل نفسَه فوق طاقتها هو سائر بها نحوَ العجز ، وإنه ليجنى عليها جنايةً عظيمة ، والذى لايُعطى نفسَه حقَّها من الطعام والشراب ، ونَصيبَها من النزهة والراحة ، وقِسْطها من النوم ، هو قاضٍ على نفسِه بالعجز ، والذى لايُداوى نفسه من العلل تصيبُه ، ويترك الدواء لمرارتِه وألمِه ، أو يبخلُ على نفسه بأجرِ طبيب ، أو بثمنِ دواء ، هو ساعٍ نحو العجز ، فمن يتعوَّذُ بالله من العجز وهو سائر نحوه بأى طريق من هذه الطرق فهو يطلب مالا يَجِدُّ فى المساعدةِ عليه ، ويقول ما لا يفعل « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون » ومَن هذا شأنُه فبعيد إجابتُه إلى مادعا « إليه يَصْعَدُ الكلِم الطيِّب ، والعملُ الصالحُ يرفعه »

أماالكسلُ فمجانبتُه تكونُ بتقويةِ الارادة ، ومعاشرةِ المجدِّين العاملين ، ومباشرةِ الأسباب ، وتذكُّرِ الآمالَ ، وأنه لم يَنَلْها الاداءبٌ فى العمل لها ، ومجدٌّ فى السير نحوها ، والكسول كما يفقِد حظًّا عظيما من السعادة ، فانه يفقِد كنزا من الصحة ، فان الجد والنشاط يُجْرِيَان الدم فى العروق فتنتعش الصحة ، وتقوَى البِنْيَة ويشتدُّ الساعد ، وينمو العقل ، والكُسالى يقصِّرون فى أداءِ الواجبات إيثاراً للراحةِ على العمل ، وتفضيلا للقعود على النهوض ، وإن أدّوا واجبا أدّوْهُ بفتور ، وضعفٍ وخمول « وإذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا » « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون »

فالعجز والكسل ، داءان وبيلان ، ومرضان قاتلان ، لا للحياةِ الروحية ، ولكن للحياةِ الطيبة فى الدنيا والآخرة ، فنعوذُ بالله منهما ، ونَتحصَّنُ به من شرهما

والخامس والسادس مما تعوّذ منه النبي ﷺ الجبن والبخل ، والأول شح بالنفس ، والثانى شح بالمال فالذى يبخل بنفسه عن بذلها فى سبيلِ الدين ، فى سبيل الدفاع عن الحق ، فى سبيلِ إقامةِ معالمه ، ومدّ رُواقِه ، فى سبيل حفظ البلاد من المعتدين عليها ، والمنتهكين لحرُماتها ، والسالبين لحقوقها ، والقاسرين لأهلها على الذل والاستعباد ، والمستبدين بهم شر الاستبداد ، الذى يبخل بنفسه عن بذلها فى هـذه الطرق المعبَّدة ، والسبل المذلَّلة ، سبلِ الكرامةِ والعزة ، والشرفِ والرفعة ـ الذى يبخل بها عن ذلك ، يميتُ نفسه ، ويشترى نحْسَه ، لأنه إن حَيِيَ جسمه ، فقد ماتت روحُه ، ماتت نفسُه العالية ، ذهبت حياته الطيِّبةُ ، وكم من حيٍّ بين الناس فى عِداد الأموات ، وكم من ميِّتٍ فى عدادِ الأحياء « ولا تَحْسَبَنَّ الذين قتِلُوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » فالحياة الحقة أن تعيش مرفوع الرأس ، موفور الكرامة ، محفوظ الحرية ، فى قولك وتصرفك ، وقلمك وخطابتك ، ورأيك واعتقادك ، أن تعيش فى أمة لا سلطان لأحد عليها ، ولا مستبدّ يتحكم فى رقابِها ، وحقوقها وأموالها ، رأيُها المحترم وقولها النافذ ، ومصلحتها المقدَّمة ، ولن يعيش فى أمة هـذا شأنُها ووصفُها إلا إذا بذل نفسه فى الدفاع عن مصالحها ، وكرَّس حياته في اقتناص الخير لها ، وأفنى نفسَه فى بقائها ، وحياتَه فى حياتها ، هذا هو الكريم حقا ، هذا هو الشجاع صدقا هذا هو الجواد بلا ريب ، والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجود

أما الذى يبخلُ بماله عن نفسِه فلا ينفقه فى سبيلِ تربيتها ، وتهذيب خُلُقها ، أو توفير العزة لها ، أو سدِّ حاجها ، أو تقديم الطيبات لها ـ أو يبخل به عن الفقراء والمساكين ، والعَجَزة والمُقْعَدِين ، والمدينين والغارمين ، والمنكوبين والملهوفين ـ أو يبخل به عن الجهاد ، ومناجزةِ الأعداء ، أو عن مصالح الأمة العامة ، فلا يبني به المساجد ، ولا ينشئ المدارس ، ولا يقيم المستشفيات ، ولا يُرْسِلُ البعثات ، ولا يهينه فى سبيل عزة الأمة ، و يفرّقُه فى سبيلِ وحدتها ـ الذى يبخل بماله عن ذلك ، و يحبسُه

فى خزائنه ، ساعٍ فى إهلاك نفسه والقضاءِ على أمته ، بل ساعٍ فى خراب الكون لأن بالمال قيامَه ، وانتظامَ شؤونه ، وتذليلَ صعابه ، وتسهيلَ سبله ، وتقريبَ مصالحه ، وقضاء حوائجه ، فالذى يحبس المال عن ذلك يُورِدُ العالَمَ صعابا ، ويُرْهِقه صعودا ، وَلِمَ نبخلُ بالمال وندّخره فى المصارف أو الخزائن ، لا نتمتع به ولا ننفع غيرنا ، أنأخذه معنا إلى الأجداث ، ونتذوقُ منه فى عالَمِ الغربة والوَحْدَة ، أينفعنا إذا وقفنا أمام أسرع الحاسبين ، واشتد الأمر ، وهال الخطب ، وعظم الكرب ، لن ينفعَ الانسانَ بعد وفاتِهِ مالُه ، إذا لم يكن له من عملِهِ ناصر ، بل ذلك المال شرٌّ عليه في القيامة ، وعذاب ونكال « ولا يحسبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سَيُطوَّقونَ ما بخلوا به يوم القيامة » « والذين يكنزون الذهبَ والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يَوْمَ يُحْمَى عليها فى نارِ جهنمَ فتُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ياهذا ان ما أجهدت نفسك فى جمعه وادِّخاره إذا حضرك الموت رُفِعَتْ عنك يدُه ، وتلقاه الورثة فرحين مستبشرين ، فى حين تتلقى عذابه ، وتصلى ناره . وحينئذ يبدِّدونه ذات الشمال وذات اليمين ، يقضون به الشهوات ، ويوفِّرون به اللذات ، فهم فى فرح ومرح ، وأنت فى غم وترح ألهذا جمعتَه ، ألهذا حرمتَ نفسَك طولَ حياتِك ، لو نظرت بعيدا بل قريبا ، ماضننت بمال على ذى حاجة ، بمال إن لم يرثْه ولدُك وقرابتُك فالله وارثه « إنا نحن نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجعون »

فاتّقِ الله يا مسلم وجُدْ بنفسك ومالك فان المؤمن الصادق من بذل رُوحه فى سبيل دينه ، من بذل مِلْكَهُ فى سبيلِ المُلْكِ لأمته « إنما المؤمنون الذين آمنوا باللهِ ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيلِ الله ، أولئك هم الصادقون » فنعوذ بالله من الجبن والبخل كما تعوّذ منه رسول الله ﷺ

السابع والثامن مما تعوّذ منه النبي ﷺ غلبة الدين وقهر الرجال ، والدينُ أعاذك الله إذا غلب الانسانَ ذهب بعزّه ومجده ، ونعيمه وأنسه ، ذهب بطارفه وتليده ، وجديده وقديمه ، إذا غلب الانسانَ ملك عليه نفسه ، وفكرَه وعقله ، وصوابَه ورُشْدَه ، فلا يخلص إلى المناءة ، ولا يُحْسِن التفكير ، ولا يصيبُ الصواب ، وإنما يغلبُ الدينُ إنساناً استدان بلا بصيرة ، ولم يدبرْ أمره ، وينظمْ شأنه ، ويجدّ فى طلب المال ، وتلمّسِ الطرق إليه ، ليقومَ بالسداد ، إنما يغلب من استدان ولم يعزم على الوفاء ، بل استدان ونيته التقصير فى السداد ، إنما يغلبُ من استدان لغير حاجة ، كمن استدان لأرواءِ شهواته ، أو ملء بيته بالأثاث والرِّياش ، أو تجهيزِ بنته بما سبيلُه الاسراف ، وحُبُّ الظهور الكاذب ، والتمدُّحُ بالباطل ، أما من استدان لضرورةٍ أو حاجة وفى عزمه الوفاء ، فهذا الله ضامنه ، فهو موفقه للسداد ، ورازقه من حيث لا يحتسب ، حتى يَقْضِيَ عنه دينَه ، ويُخَلِّصَه مما أهمه «ومن يَتَّقِ الله يجعلْ له مخرجا ويرزقْه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكلْ على الله فهو حسبه» «ومن يتَّقِ الله يجعل له من أمره يُسْرا» فنعوذ بالله من الديون الغالبة . كما نعوذ به من غلبة الرجال وغلبتُهم إما بالاذلال والاستعباد لغيرهم ، أو انتصارهم عليه فى مواطن النزاع والخصومة أو فى ميادين الحرب والطعان ، فنعوذ بالله من أن يستبدَّ بنا فرد فيستخدمَنا لمآربه وأغراضه ، ويبني على رءوسنا عظمتَه الكاذبة ، ومجدَه الموهوم ، يبنى بأيدينا ما يخلِّد به اسمه ، ويطمس معالم عملنا فيه ، نعوذ بالله من أن يفوز بنا خصمنا فى قضية أو منازعة فينصرَ باطلَه على حقنا ، وتكونَ له الكلمة علينا ، نعوذ بالله من غلبةِ العدو ، وأن يُقَتِّلَ رجالنا ، ويسلبنا أموالنا ، ويسبي نساءنا وذرارينا ، ويجوسَ ديارنا ، ويدوس عزتنا وكرامتنا ، نعوذ بالله من كل ذلك ونسأله القوَّةَ والعُدَّة حتى يرهَبنا الأعداء ، نسأله حسنَ التدبير ، ومتانة الحجة حتى لا نغلب فى خصومة ، نسأله أن يوفر علينا أسباب الملك والعزة ، حتى لا يستبد بنا فرد أو أمة

تلك هي الأمورُ الثمانية التي علّمها رسول الله ﷺ لأبى أمامة فلنتخذ منها غَداء في الصباح ، وعَشاء في المساء ، حتى نجمع إلى تغذية الجسم تغذية الروح ، حتى نضمَنُ لنفوسنا اللذة الكاملة ، والسعادة الشاملة

وإياكَ أن تعوذ بالله من هذه الثمانية وأنتَ لسبيلها سالك ، وفى التلوُّثِ بها مقيم ، بل الواجبُ عليكَ أن تتجنبها ، أوتأخذَ فى التفَصّى منها ، وترجو من الله الاعانة ، والتوفيقَ لبلوغ الغاية

وإياكَ أن تلوكهاَ بلسانِك ، ولم تمِرَّها بقلبك ، فان الدعوةَ الطيبة ماصدرت عن القلوب قبل أن تلفِظَ بها الافواه ، فهى دعوة عميقة ، جدير بها أن تصل إلى أبعد مدى ، تصلُ إلى السموات العلا ، فيتلقاها الملأ الأعلى ، ويتقبّلها ربُّها بقبول حسن ، وأسأل الله لى ولكم التوفيق إنه ولىُّ المتقين

النموذج الثامن

درس فى شرح الحديث الآتى

عن عبدِ الله بن عمْرو قال : قال رسول الله ﷺ : أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كان فيه خصْلةٌ منهن كان فيه خَصلةٌ من النفاق حتى يدَعها ، إذا ائتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدَر ، وإذا خاصم فجر ـ رواه الشيخان وأبو داود والترمذى . وفى بعض الروايات : وإذا وعد أخلف

* * *

لايرضى المؤمن أن يكونَ منافقا لأنه يعلم أن المنافقين فى الدَّرْكِ الأسفل من النار ، وأنهم شر من الكفار ، وقد بين الرسول ﷺ فى وضوح وجلاء ، أن هناكَ خصالا أربعا إذا وجدت فى شخصٍ كان منافقا تمام النفاق ، وإن وُجِدَ بعضُها فيه كانت درجتُه من النفاق بقدر مافيه من تلك الخصال حتى يدَعه

الخصلة الأولى خيانةِ الأمانة فمن ائتمنك على نفسه فقتلتَه ، أوعلى عِرْضِه فهتكتَه أوعلى ماله فنهبتَه ، أوقصَّرتَ فى حفظه ، أوعلى أولادِه فلم تقُمْ بواجبهم ، وتهاونت فى قضاء حوائجهم ـ من ائتمنك على صكوك أوسندات فمزَّقتها ، أوسلَّمتها لخصمه بالمجان أو بالثمن ، أو على دارِه فأهملتَ شؤونَها ، ولم تقم بالمحافظة عليها أو عِمارتها ـ إن كان لديك مال له ـ من ائتُمِنَ على رسالة يبلغها فخان فيها و بدَّل وغيَّر ، أو على علم فلم يبلِّغه كما سمعه ، بل دسَّ فيه وحرَّف ، أو على نفسٍ يؤدِّبُها فتهاونَ فى تأديبها ، من ائتُمِنَ على مصلحة بلد أو مركز أو مديرية أوقطر ، كعمدة أو مأمور أو مدير أووزير أو رئيس وزراء أو مَلِك ، فلم يبذُلْ جُهْدَه فى مصلحةِ من وَلاَّه الله أمرَهم ، أوتهاونَ فى حقوقهم ، أوظلمَهم و بغى عليهم ، أوحابى أثرياءهم وذوى الجاه منهم ، أو سمع شكوى ذوى المكانة فيهم ، وأعرض عن فقرائهم وعامتهم ، من ائتُمِنَ على شئ من ذلك فخانه ففيه شعبة من النفاق ، فالمؤمن المخلص حافظُ للأمانات كلِّها كما قال تعالى فى وصف المؤمنين « والذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعُون » وقد أمَرَ الله بأداء الأمانةِ فى قوله «إن الله يأمرُكم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ، وإذا حكمتُم بين الناسِ أن تحكموا بالعدل » ونهى عن الخيانة بقوله « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون »

الخصلة الثانية الكذب فى التحديث ، والكذب جريمة من الجرائم العظيمة ، التى يتضرر المجتمعُ بانتشارها فيه ضررا بليغا ، وهو أسُّ النفاقِ فى الايمان ، بل فى كلِّ شئ ، فان المنافقَ يزعمُ أنه يقول بلسانه ماواطأه عليه قلبه ، والواقع أنه يُضْمر خلاف مايُظْهر ، فهو كاذب فى قوله يغش الناسَ ، ويُضِلُّهم طريق الصواب ، ويُلَبِّس عليهم أمورَهم ، وإذا عُرِف الشخص بالكذب فقد الثقةَ به وهى رأس الربح فى هذه الحياة ، فلا يقام له وزن ، فهو ميِّت بين الأحياء تقتحمُه أبصارهم ، وتزدريه نفوسُهم ، وقد أخبرنا الله فى كتابه أن افتراء الكذب لايصدُرُ عن مؤمن ، وذلك فى قوله « إنما يفترى الكذبَ الذين لايؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون »

ونفى الفلاحَ والنجاح عن الكاذب وأعدّ له العذاب الهون ، وذلك فى قوله « إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون . متاع قليلٌ ، ولهم عذاب أليم » وفى حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : عليكم بالصدقِ فإن الصدقَ يهدِي إلى البرِّ ، والبرَّ يهدِي إلى الجنة ، ومايزال الرجل يصدُق ويتحرى الصدقَ حتى يكتبَ عند الله صِدِّيقا ، وإياكم والكذبَ ، فإن الكذبَ يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدِي إلى النار ، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّابا ـ الحديث رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى

فيامسلم اسمعْ كلامَ الله وَكلامَ الرسول ، وَتحرَّ الصدق فى أخبارك ومعاملاتك وَسائر شؤونك ، وَتجنَّب الكذب الذى هو سبيل النفاق قال تعالى « فأعقبهمْ نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون »

الخصلة الثالثة غدرُ العهود . إذا عاهدتَ إنسانا على عمل تنجزه له فى وقتٍ محدود ، أو على تسديد دين له فى موعدٍ مضروب ، أو تعاهدت معه على نبذِ المنكرات ، واتباع الحسنات ، أو اتفقت معه على بيع سلعة ، أو تأجير منزل ، أو بذلِ معروف ، أو زواج ابنة أو . . . . ـ إذا عاهدته على مثل ذلك فغدَرتَ فى معاهدتِك فقد دخلتَ بابا من أبوابِ النفاق ، وقد خنتَ صاحبك ، ولبّست عليه فى تدبير شأنه ، وأفسدت عليه نظام عملِه

وقد أمرنا الله أن نوفىَ بالعقود ، ونهانا عن نقض العهود . فقال جل شأنه « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تَنقُضُوا الأيمانَ بعدَ توكيدها ، وقد جعلتم اللهَ عليكم كفيلا ، إن الله يعلمُ ما تفعلون »

ومما يتصل بغدر العهود إخلافُ الوعود الذى جاء ذكره فى بعض روايات الحديث وهو مضيعٌ للثقة ، وسرقة من وقت الموعود ، وإخلالٌ بنظامِ حياته وأعماله ، وهو يكون جريمة كبرى إذا كان العزمُ على الاخلاف مقارِناً للوعد ، فإن كان عازما على الوفاءِ ساعةَ وعَد ، ولكن عرض له ما حال دون الوفاء ، لم يكن من أهل النفاق ،

و إن تمكّن من الوفاء ولم يف فقد أجرم وإن لم يكن ساعةَ الوعدِ مصمما على الاخلاف

الخصلة الرابعة الفجور فى الخاصمة ، ومعناه عدم الوقوف فيها عند حدود الحق كأن ينكر حقّ صاحبه ، أو يستحلّ مالَه وعِرضه ، أو يسترسل فى النزاع والعِداء ، ولو أفنى فى سبيلِ ذلكَ أموالَه ، أو عرّض حياته للخطر فمَنْ كان بهذه المثابةِ فى خصومتِه فهو فاجر منافق ، وكم رأينا من متنازِعين خرِبت بيوتهم ، وذهبت أموالهُم ، لأنهم نَسُوا أو تناسَوْا مافيه الخِصام ، وجعلوا غرضَهم الأوّل أن يكيدَ كلٌّ خصمه بما استطاع من حَوْلٍ وقوة ، فكانت العاقبةُ وخيمة ، وها نحن أولاء نرى الحزبين فى بلد واحد ونرى الأحزابَ السياسية لاينى كلٌّ منها عن الحطّ من خصمه ، والثلم لعِرضه ، والافتراءِ عليه ، وخَلْق التهم له ، والسعاية به لدى الحكام والولاة ، وتدبير المكائد له ، ونصب العقبات فى سبيله ، وتناسَوْا أن الحق ينبغى أن يكونَ غايةَ كلّ حزب ، وأن تكونَ المصلحة العامة رائدالجميع ، فأمام الحق يخضعون ، وفى سبيل المصلحة يَجِدُّون ، وأمامَ عدوهما الخارجى يتحدون

تلك هي الأمورُ الأربعة التى إذا اجتمعت فى شخصٍ كان منافقا خالصا ، وإن نطق بالشهادتين ، وزعم الاسلام ، وادّعى الايمان ، فالاسلام أماراتٌ تدل عليه ، وللنفاق علامات ترشد إليه ، وقد رأينا سمات النفاق بادية واضحة ، ودلائل الاسلام خافية ضائعة ، فكيف نحكم بالإيمان الصادق فى مَوْطِنِ النفاق الخالص ، وإن وُجِدَ فى الشخص واحدةٌ من الأربعة كان لديه ربع النفاق ، وإن ثنتان فنصفه ، وإن ثلاثة فكلُّه إلا أقله

فارأ بنفسك يا من تبغض المنافقين أن تتخلقَ بأخلاقهم ، وأن تحقّقَ فيك سماتِهم ، ارأ بنفسِك أن تتزحزحَ عن جنة المخلصين ، إلى نار المنافقين ، ارأ بنفسكَ عن التلوّن والتزم طريقة واحدة ، ومبدأ لا تحيد عنه وقل : رب اهدنى صراطك المستقيم

النموذج التاسع

درس فى هديه ﷺ فى الصلاة [١]

كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال : الله أكبر ولم يقل شيئا قبلها مطلقا وكان يرفعُ يديه مع التكبير إلى أذنيه مادًّا أصابعهما مستقبلا بهما القبلة ثم يضعُ يده اليمنى على ظهر اليسرى ثم يأخذ فى دعاءِ الاستفتاح فتارة كان يقول « اللهم باعِدْ بينى وبين خطاياى كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ، اللهم اغسلْنى من خطاياى بالماء والثلْجِ والبَرَد [٢] اللهم نقِّنى من الذنوبِ والخطايا كما ينقى الثوبُ الأبيضُ من الدنَس [٣] ، وتارة يقول «وَجهتُ وَجهى للذى فطر [٤] السمواتِ وَالأرضَ حنيفا [٥] مسلِما وَما أنا من المشركين إن صلاتى وَنُسُكى [٦] وَمحياىَ وَمماتِى لله ربِّ العالمين لا شريكَ له ، وَبذلك أمِرْتُ وَأنا أولُ المسلمين ، اللهم أنتَ الملكُ لاإلهَ إلا أنْتَ أنتَ ربى ، وأنا عبدُك ، ظلمتُ نفسى ، واعترفتُ بذنبى فاغفرْلى ذنوبى جميعَها إنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يَهْدِى لأحسنها إلا أنتَ ، واصرف عنى سيئَ الأخلاق ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبَّيْكَ وسَعْدَيك [٧] والخيرُ كلُّه بيديك ، والشرُّ ليس إليك ، أنابكَ وإليك ، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ ، أستغفرك وأتوبُ إليكَ ـ والراجح أن هذا الاستفتاح كان يقولُه فى دعاء الليل ـ وتارة كان يقول « الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بُكْرَةً وأصِيلا ، [٨] اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان ، من هَمْزِه ونفْخِه ونَفْثِه [٩] » وتارة كان يقول « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمُك ، وتعالى

---

(١) تذكر فى هذا الدرس هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وعلى المدرس أن يبين ذلك للحاضرين بعمله ويشرح لهم ما يقرءون ويقولون فى الصلاة وهذا الدرس لخصناه من زاد المعاد (٢) صفار المطر (٣) الدنس فى الأصل الوسخ واستعمل فى كل مايشين الانسان (٤) خلق (٥) مائلا عن الاديان الباطلة إلى الدين الحق (٦) عبادتى (٧) لبيك إجابة لك بعد إجابة وسعديك معناه ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة (٨) البكرة أول النهار والأصيل آخره (٩) تقدم بيانها فى ص ٢٢

جَدُّك وجلّ ثناؤك ، ولا إله غيرُك » وتارة كان يقول غيرهذا ثم يتعوّذُ فيقول : أعوذ بالله من الشيطانِ الرَّجِيم ، ويقرأ الفاتحة ، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم تارة ويخفيها أكثرَ ممايجهر بها ، وكانت قراءتُه مدّا يقف عند كل آية ويمدّ بهاصوتَه فاذا فرغ من قراءة الفاتحة قال : آمين فان كان يجهر بالقراءة رفع بها صوتَه ، وقالها مَنْ خَلْفَه ، وكان له سكتتان سكتة بين التكبير والقراءة ، وسكتة أخرى : قيل إنها بعد الفاتحة ، وقيل إنها بعد القراءة وقبل الركوع ، وكان ﷺ بعد قراءة الفاتحة يأخذ فى قراءة سورة أخرى ، وكان يطيلها أحيانا ويخففها لعارض من سفرأوغيره ويتوسط فيها غالبا

وكان يقرأُ فى الفجرِ بنحو ستين آية إلى مائة ، وصلاها بسورة «ق» وصلاها بالروم ، وصلاها باذا الشمسُ كُوِّرت ، وصلاها باذا زُلزِلت بالركعتين كليهما ، وصلاها بالمُعَوِّذتين وكان فى السفر ، وصلاها فافتتح بسورة المؤمنين حتى بلغ ذكر موسى وهٰرون فى الركعة الأولى أخذته سَعْلَة فركع ، وكان يصليها يوم الجمعة بألم تنزيل السجدة وسورة هل أتى على الانسان كاملتين

وأما لظهرفكان يُطيلُ قراءتَها أحيانا وكان يقرأ فيها تارة بقدر « ألم تنزيل » وتارة بسبح اسم ربك الأعلى ، والليل إذا يغشى ، وتارة بالسماءِ ذاتِ البروج ، والسماء والطارق ،

وأما العصر فعلى النصف من قراءة صلاة الظهر إذا طالت ، و بقدرها إذاقصرت

وأما المغرب فصلاها مرة بالأعراف فرقها فى الركعتين ، ومرة بالطور ، ومرة بالمرسلات وكان يقرأ فيها بالصافات ، وبحم الدخان ، و بسبح اسم ربك الأعلى ، وبالتين والزيتون وقرأ فيها بالمُعَوِّذتين

وأما العشاء الآخرة فقرأ فيها ﷺ بالتين والزيتون ، ووقّت لمعاذ فيهابالشمس وضحاها ،وسبح اسم ربك الأعلى ، والليل إذا يغشى ونحوها وأنكر عليه فيها قراءتَه بالبقرة ولهذا قال له : أفتّانٌ أنت يا مُعاذ

وأما الجمعة فكان يقرأ فيها بسورة الجمعة والمنافقين كاملتين وسورة سبِّح والغاشية ، وكذلك فى صلاة العيدين وكان ﷺ لا يُعيِّن سورةً فى الصلاة بعينها لا يقرأ إلا بها إلا فى الجمعة والعيدين ، وأما فى سائر الصلوات فمامن سورة فى المفصل صغيرة أو كبيرة إلا أمَّ الناس بها فى الصلاة المكتوبة ، وكان من هديه قراءة السورة كاملة وربما قرأها فى الركعتين وربما قرأ أول السورة وأما قراءةُ السورتين فى ركعة فلم يحفظ عنه إلا فى النافلة ، وكان ﷺ يُطيل الركعةَ الأولى على الثانية من صلاة الصبح ومن كل صلاة وربما كان يُطيلها حتى لا يُسْمَعَ وقعُ قدم ، وكان يُطيل صلاةَ الصبح أكثرَ من سائر الصلوات لأن قرآن الفجر مشهود ، ولأنها تكون عقيب النوم والراحة ، فالجسم فى نشاط ، والقلب فى فراغ ، والعقل فى صفاء

وكان ﷺ إذا فرغ من قراءة السورة سكت بقدر ما يترادّ إليه نَفَسُه ثم رفع يديه كما تقدم وكبَّر راكعا ووضع كفَّيه على ركبتيه كالقابض عليهما ووتَّر يديه ، فنحَّاهما عن جَنْبَيْه وبسط ظهره ومدَّه واعتدل ، ولم يَنْصِبْ رأسَه ولم يخفضه بل يجعله حِيالَ ظهره مُعادِلا له ، وكان يقول : سبحانَ ربِّى العظيم وتارة يقول مع ذلك أومقتصرا عليه : سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك اللهم اغفرلى ، وتارة يقول : سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح أو يقول: اللهم لك ركعت ، وبكَ آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى و بصرى ومخِّى وعظمى وعصبى ـ وكان يقول هذا فى قيام الليل ، ثم كان يرفع رأسه بعد ذلك قائلا سمع الله لمن حمده ويرفع يديه كما تقدَّم ، وكان دائما يقيم صلبه إذا رفع من الركوع و بين السجدتين و يقول : لاتجزئ صلاة لايقيمُ فيها الرجل صُلْبَهَ فى الركوع والسجود ، وكان إذا استوى قائما قال : ربَّنا ولك الحمد ، وكان من هديه إطالة هذا الركن بقدر الركوع والسجود فكان يقول فيه : سمع الله لمن حمِده ، اللهم ربَّنا لك الحمد ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ماشئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد أحقُّ ماقال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ لامانع لما أعطيت ، ولامعطىَ لما منعت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد ،

وتارة يقول غير ذلك ، ثم كان يُكبِّر ويخر ساجدا ولا يرفع يديه ، وكان يضع ركبتيه قبل يديه ثم يديه بعدهما ثم جبهتَه وأنفه ، وكان يسجُد على الأرضِ كثيرا وعلى الماء والطين وعلى الخُمْرَة (١) المتخذةِ من خوص النخل وعلى الحصير المتخذ منه وعلى الفروة المدبوغة وكان إذا سجد مكَّن جبهته وأنفه من الأرض ونحَّى يديه عن جنبيه وَجافى بهما حتى يُرَى بياضُ إبطيه ، وَكان يضع يديه حِذاء منكبيه وَأذنيه ، وَكان يعتدل فى سجوده ، و يستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة ، وكان يبسُط كفيه وأصابعه ولايفرِّج بينها ولايقبضها ، وكان يقول : سبحان ربى الأعلى وأمر به ، أو يقول : سبحانكَ اللهم وبحمدِك لاإله إلا أنت ، وتارة يقول : اللهم إنى أعوذ برضاك من سَخطك ، و بمعافاتِك من عقو بتك ، وأعوذُ بك منك ، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك ، وتارة يقول : اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولكَ أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه و بصره تباركَ الله أحسن الخالقين ، ثم كان ﷺ يرفع رأسه مكبرا غير رافع يديه و يرفع منه رأسه قبل يديه ، ثم يجلس مفترشا يفرش رجلهُ اليسرى و يجلس عليها و ينصِب اليمنى ، وكان يضع يديه على فخِذيه ، و يجعل مرْفقه على فخذه وطَرَفَ يده على ركبته وقبض ثنتين من أصابعه وحلّق حلْقة ثم رفع إصبعه يدعو بها و يحرِّكها ، وكان يقول : اللهم اغفرلى وارحمنى واجبُرنى واهدنى وارزقنى ، وكان هديه إطالة هذا الركن بقدر السجود ، ثم كان ﷺ ينهض بعد السجدة الثانية على صدور قدميه وركبتيه معتمدا على فخذيه ولايعتمد على الأرض بيديه ، وكان إذا نهض افتتح القراءة ولم يسكت كما كان يسكت عند افتتاح الصلاة

وكان ﷺ يصلى الركعة الثانية كالأولى سواء إلا فى أربعة أشياء السكوت ، والاستفتاح ، وتكبيرة الاحرام ، وتطويلها كالأولى ، فاذا جلس للتشهد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى ، وأشار بأصبعه السبَّابة

(١) الخمرة نسيج من الخوص أو الحصير أو غيرهما بقدر ما يضع الرجل عليه وجهه فى سجوده

وكان لا ينصبها نصباً ولا يُنيمُها بل يحنيها شيئا ويحركها كما تقدم ، وكان يقبض إصبعين وهما الخِنصَر والبِنصر ويحلق حلْقة وهي الوسطى مع الابهام ويرفع السبابة يدعو بها و يرمي ببصره إليها و يبسط الكف اليسرى على الفخذ اليسرى و يتحامل عليها ، وصفة جلوسه للتشهد كما تقدم فى الجلوس بين السجدتين ، وكان يتشهد فى هذه الجلسة و يعلم أصحابه أن يقولوا « التحيَّاتُ والصلواتُ والطيِّباتُ لله ، السلامُ عليكَ أيها النبي ورحمة الله و بركاتُه ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » وكان ﷺ يخفف هذا التشهد حتى كأنه على الرَّضْف وهى الحجارة المحماة على النار ، ولم ينقل عنه فى حديث قط أنه صلى عليه وعلى آله فى هذا التشهد ، ثم كان ينهض مكبِّرا كما تقدم ، ثم يقرأ الفاتحة وحدها ولم يثبت عنه أنه قرأ في الركعتين الأخيرتين بعد الفاتحة شيئًا ، وكان إذا جَلَسَ فى التشهد الأخير جلس متورِّكا فيفضى بوركه إلى الأرض ويخرج بقدميه من ناحية واحدة ، وأحيانا كان يجعل قدمه اليسرى بين فخذه وساقه و يفرش قدمه اليُمنَى

ومما كان يدعو به فى صلاته « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجَّال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثَم والمغرَم »

ومن أدعيته فيها « اللهم اغفر لى ذنبي ، وَوَسِّع لى فى داري ، و بارِكْ لى فيما رزقتنى »

وكان ﷺ بعد التشهد الاخير يسلِّم عن يمينه « السلام عليكم ورحمة الله » وعن يساره كذلك

وكان ﷺ إذا قام فى الصلاة طأطأ رأسه ، وكان فى التشهد لا يجاوز بصرُه إشارتَه وكان يقول : جُعلَتْ قرة عينى فى الصلاة ، و يقولُ يا بلال أرِحْنا بالصلاة ، وكان يدخل فى الصلاة وهو يريد إطالتَها فيسمعُ بكاء الصبي فيخففها مخافة أن يشق على أمه ، وأرسل مرة فارسا طليعة له فقام يصلى وجعل يلتفت إلى

الشِّعب [١] الذى يجىء منه الفارس ولم يشغله ما هو فيه عن مراعاة حال فارسه ، وكذلك كان يصلى الفرض وهو حامل أُمامةَ بنت أبى العاص ابنةَ بنته على عاتقه إذا قام حملها و إذا ركع وسجد وضعها ، وكان يصلى فيجىء الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيُطيل السجدة كراهيةَ أن يلقيه عن ظهره ، وكان يصلي فتجىء عائشة من حاجتها والباب مُغلَق فيمشى ففتحُ لها الباب ثم يرجعُ إلى الصلاة ، وكان يرد السلام بالاشارة على من يسلِّم عليه وهو فى الصلاة ، وكان يصلى وعائشة معترضة بينه و بين القبلة ، فاذا سجد غمزها بيده فقبضت رجلها وإذا قام بسطتها ، وكان يصلي على المنبر ويركع عليه فاذا جاءت السجدة نزل القهقرى فسجد على الأرض ثم صعِد عليه ، وكان يصلى فجاءته جاريتان من بنى عبدِ المطلب قد اقتتلتا فأخذهما بيده فنزع إحداهما من الأخرى وهو فى الصلاة ، وكان يبكى في صلاته ، وكان يتنحنح فى صلاته ، وكان يصلى حافيا تارة ومتنعلا أخرى ، وأمر بالصلاة بالنعل مخالفة لليهود ، وكان يصلى فى الثوب الواحد تارة ، وفى الثوبين تارة وهو أكثر ، وقنت فى الفجر بعد الركوع شهرا ثم تركه ، ولم يكن من هديه القنوت فيها دائما

وكان ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركتَ يا ذا الجلال والاكرام ، ولم يمكثْ مستقبل القبلة إلا بمقدار ما يقول ذلك و يسرع الانتقال إلى المأمومين فيستقبلهم بوجهه ، وكان إذا صلى الفجر جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس ومما كان يقول عقب الصلاة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا مُعْطِيَ لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد [٢]

(١) الشعب الطريق فى الجبل أو منفرج ما بين الجبلين

(٢) أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه وانما ينفعه الايمان والطاعة

النموذج العاشر

درس فى هديه ﷺ فى الصيام

كان من هديه ﷺ ألا يدخل فى صوم رمضان إلا برؤية محققة أو بشهادة شاهد واحد كما صام بشهادة عبدالله بن عمر ،وصام مرة بشهادة أعرابى فان لم تكن رؤية ولا شهادة أكمل عدة شعبان ثلاثين يوما ، وكان إذا حال ليلة الثلاثين دون منظره غيم أو سحاب أكمل عدة شعبان ثلاثين يوما ثم صام ، ولم يكن يصوم يوم الاغمام ولا أمر به

وكان من هديه ﷺ أمر الناس بالصوم بشهادة الرجل الواحد المسلم وخروجهم منه بشهادة اثنين ، وكان من هديه إذا شهد الشاهد برؤية الهلال بعد خروج وقت العيد أن يفطر و يأمرهم بالفطر و يصلى العيدَ من الغد فى وقتها ، وكان يعجل الفطر و يحض عليه ويتسحَّر و يحث على السحور و يؤخره و يرغِّب فى تأخيره ، وكان يحض على الفطر بالتمر فان لم يجد فعلى الماء ،

وكان ﷺ يفطر قبل أن يصلى، و يذكر عنه ﷺ أنه كان يقول عند فطره : اللهم لك صُمْت ، وعلى رزقك أفطرت

ورُوِى عنه أنه كان يقول : ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى ، ونهى الصائم عن الرفث والصخب [1] والسباب وجواب السباب، فأمره أن يقول لمن سابَّه : إنى صائم ، وسافر ﷺ فى رمضان فصام وأفطر وخيَّر الصحابة بين الأمرين وكان يأمرهم بالفطر ، إذا دنوا من عدوهم ليتقوَّوْا ، ولم يكن من هديه ﷺ تقدير المسافة التى يفطر فيها الصائم بحدّ ولا صح عنه فى ذلك شئ وقد أفطر دحية بن خليفة الكلبى فى سفر ثلاثة أميال وقال لمن صام : قد رغبوا

(١) الرفث كما قال الأزهرى كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة والصخب الضجة واضطراب الأصوات للخصام

عن هدى محمد ﷺ ، وكان الصحابة حين ينشئون السفر يُفطرون من غير اعتبار مجاوزة لبيوت ويخبرون بأن ذلك سنته وهديه ﷺ ، وكان يدركه الفجر وهو جنب من أهلِه فيغتسل بعد الفجر ويصوم ، وكان يقبّل بعض أزواجه وهو صائم فى رمضان ، وشبّه قبلةَ الصائم بالمضمضة بالماء ، ولم يصح عنه التفريق بين الشابّ والشيخ ، وكان من هديه ﷺ إسقاط القضاء عمن أكل أو شرب ناسيا وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أطعمه وسقاه ، والذى صح عنه ﷺ أن الذى يفطر به الصائم الأكل والشرب والحجامة والقىء ، والقرآن دل على أن الجماع مفطر كالأكل والشرب لا يعرف فيه خلاف ، وصح عنه أنه كان يستاك وهو صائم ، وذكر الإمام أحمد أنه كان يصب الماء على رأسه وهو صائم ، وكان يتمضمض ويستنشق وهو صائم ، ومنع الصائم من المبالغة فى الاستنشاق ولم يصح عنه أنه احتجم وهو صائم ولم يصح عنه فى الكحل شئ

وجعل ﷺ الاطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام فيفطران ويطعمانِ عن كل يوم مسكينا ، ورخص للمريض والمسافر أن يُفْطِرا ويقضيا ، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك فان خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعامَ مسكين لكل يوم فان فطرهما لم يكن لخوف مرض وإنما كان مع الصحة فجبر باطعام المسكين ، وكان من هديه ﷺ فى شهر رمضان الاكثار من أنواع العبادات فكان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن فى رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ، وكان أجودَ الناس وأجود ما يكونُ فى رمضان يكثر فيه من الصدقة والاحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف وكان يخص رمضان من العبادة بما لايخص غيره به من الشهور حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانا ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصل فيقولون له : إنك تواصل فيقول : لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى

وكان من هديه ﷺ فى صيام التطوُّع أنه يصوم حتى يقال لا يفطر و يفطر حتى يقال لايصوم ، وماستكمل صيام شهر غير رمضان ، وما كان يصوم فى شهر أكثر مما يصوم فى شعبان ، ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ، ولم يصم الثلاثة الأشهر سردا كما يفعله بعض الناس ، ولاصام رجب قط ولااستحب صيامه بل روى عنه النهى عن صيامه كما رواه ابنُ ماجَهْ ،وكان يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس ، وكان لا يفطر فى أيام البيض فى سفر ولا حضر وكان يحض على صيامها وهى الثالث عشر وَالرابع عشر وَالخامس عشر من الشهر العربى ، وَأما صيام عشر ذى الحجة فقد اختلف فيه ، وصح عنه فى صيام ستة أيام من شوال أنه قال : صيامُها مع رمضان يعدل صيام الدهر ، وأما صيام يوم عاشوراء فانه كان يتحرى صومه على سائر الأيام ، ولما قدِم المدينة وجد اليهود تصومُه وتعظمه فقال : نحن أحقُّ بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه ، وذلك قبل فرض رمضان فلما فرض رمضان قال : من شاء صامه ومن شاء تركه ، وكان من هديه ﷺ إفطار يوم عرفة بعرفة ونهى عن صومه بها ، وصح عنه أن صيامه يكفر السنة الماضية والقابلة ، ولم يكن من هديه سردُ الصوم وصيام الدهر بل قال : إن من صام الدهر لاصام ولا أفطر

وكان ﷺ يدخل على أهله فيقول : هل عندكم شىءٌ فان قالوا : لا قال : إنى إذا صائم ، فينشئ النية للتطوع من النهار ، وكان أحيانا ينوى صيام التطوع ثم يفطر بعدُ ، أخبرت عنه عائشة رضى الله عنها بهذا وذاك ، وكان ﷺ إذا كان صائما ونزل على قوم أتمّ صيامه ولم يفطر ، وكان من هديه كراهة تخصيص يوم الجمعة بالصوم فعلامنه وقولا

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل وتركه مرة فقضاه في شوّال ، واعتكف مرة فى العَشْرِ الأول ثم الأوسط ثم العشر الأخير يلتمس ليلة القدر ثم تبين له أنها فى العَشْر الأخير فداوم على اعتكافه

حتى لحق بر به عز وجل ، وكان يأمر بخِباء فيضرب له فى المسجد يخلو فيه بربه عز وجل ، وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله فأمر به مرة فضرب فأمر أزواجُه بأخبيتهن فضُرِبَتْ فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية فأمر بخبائه فقُوِّضَ ، وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام ، فلما كان فى العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوما ، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة ، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين ، وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده ، وكان لا يدخل بيته فى حال اعتكافه إلا لحاجة الانسان ، وكان يخرج رأسه من المسجدِ إلى بيتِ عائشة فترجله وتغسِله وهو فى المسجد وهى حائض ، وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف فاذا قامت تذهب قام معها يوصلها وكان ذلك ليلا ، ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكف لا بقبلة ولا بغيرها ؛ وكان إذا اعتكف طرح له فراشه ووضع له سريره فى معتكَفه ، وكان إذا خرج لحاجته مرّ بالمريض وهو على طريقه لا يعرِّج له (١)

عظات العلماء للملوك والامراء

وصية القاضى أبى يوسف لأمير المؤمنين هارون الرشيد

أطال اللهُ بقاء أميرِ المؤمنين ، وأدامَ لهُ العزَّ فى تمامٍ من النعمة ، ودوامٍ من الكرامة ؛ وجعل ماأنعم به عليه موصولا بنعيمِ الآخرة الذى لا ينَفَد ولا يزول ، ومرافقة النبى ﷺ

إن أميرَ المؤمنين أيَّدَه اللهُ تعالى سألنى أن أضعَ له كتابا جامعا ، يعملُ به فى جبايَةِ الخراج ، والعشور والصدقات ، والجوالى (٢) وغيرِ ذلك مما يجب عليه

(١) لخصنا هذا الدرس من زاد المعاد ونحث الواعظين على أن يتغنوا من هذا الكتاب دروس إرشاد (٢) الجزيات وأصل الجالية الجماعة ثم أطلقت على الجزية

النظر فيه ، والعملُ به ، وإنما أرادبذلك رفعَ الظلم عن رعيَّتِه ، والصلاحَ لأمرهم وفَّقَ اللهُ تعالى أميرَ المؤمنين ، وسدَّده وأعانه على ما تولَّى من ذلك ، وسَلَّمه مما يخافُ ويحذر ، وطلب أن أبيِّنَ له ما سألنى عنه مما يردُ العملَ به وأفسِّرَه وأشرحَه ؛ وقد فسَّرت ذلك وشرحتُه ياأمير المؤمنين ، إن الله وله الحمدُ قد قَلَّدَكَ أمرا عظيما ، ثوابُه أعظم الثواب ، وعقابُه أشد العقاب . قلَّدك أمر هذه الأمة ، فأصبحتَ وأمسيت وأنت تبنى لخلق كثير قداسترعاكهم الله ، وائتمنكَ عليهم وابتلاك بهم ، وولاك أمرهم ، وليس يَلْبَثُ البنيانُ إذا أسِّس على غير التقوى أن يَأتيَه الله من القواعد ، فيهدمَه على من بناه ، وأعان عليه . فلا تُضَيِّعَنَّ ما قلَّدك الله من أمرِ هذه الأمةِ والرعية ، فان القوةَ فى العمل باذن الله

لا تؤخِّر عملَ اليوم إلى غد ، فانكَ إذا فعلتَ ذلك أضعت ، إن الأجلَ دون الأمل ، فبادر الأجلَ بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاةَ مؤدون إلى ربِّهم ما يؤدى الراعى إلى ربه ، فأقمِ الحق فيما ولاَّك الله وقلَّدك ولو ساعةً من نهار ، فان أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعِدَت به رعيتُه ، ولا تَزِغْ فتزيغَ رعيتك ، وإيَّاك والأمرَ بالهوى ، والأخذَ بالغضب ، وإذا نظرتَ إلى أمرين أحدهما للآخرة ، والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرةِ على أمرِ الدنيا فإن الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى . وكن من خشية الله على حذر ، واجعلْ الناسَ عندكَ فى أمر الله سَواء القريب والبعيد ، ولا تَخَفْ فى الله لومةَ لائم ، واحذر فإن الحذر بالقلب ، وليس باللسان ، واتَّقِ اللهَ فإنما التقوى بالتوقّى ، ومن يتَّقِ الله يَقِه . واعمل لأجَلٍ مفضوض ، وسبيلٍ مسلوك ، وطريق مأخوذ ، وعملٍ محفوظ ، ومَنْهَلٍ مورود ، فإن ذلك المردُ الحق ، والموقفُ الأعظم الذى تطيرفيه القلوب ، وتنقطع فيه الحجج ، لعزة مَلِكٍ قهرهم جبروتُه ، والخلق له داخرون ، بين يديه ينتظرون قضاءه ويخافون عقوبتَه ، وكأنَّ ذلك قد كان ، فكفى بالحسرة والندامة يومئذ

فى ذلك الموقفِ العظيم لمن علم ولم يعمل ، يومٌ تذلُّ فيه الأقدام ، وتتغير فيه الألوان ، ويطول فيه القيام ، ويشتد فيه الحساب . يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه : « وإن يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ مما تعدون » وقال تعالى « هذا يومُ الفصلِ جمعْناكم والأولين » وقال تعالى « إن يومَ الفصل ميقاتُهم أجمعين » وقال تعالى « كأنَّهم يومَ يَرَوْن ما يُوعدُون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار » وقال « كأنهم يومَ يَرَوْنَها لم يلبثوا إلا عَشِيَّةً أو ضحاها » فيالها من عثرةٍ لا تقال ، ويالهَا من ندامةٍ لا تنفع . إنما هو اختلافُ الليل والنهار : يُبْلِيان كل جديد ، ويقرِّبان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، ويجزى اللهُ كلَّ نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب . فاللهَ اللهَ فان البقاء قليل ، والخطبَ خطير ، والدنيا هالكة وهالكٌ من فيها ، والآخرة هي دارُ القرار ، فلا تلقَ الله غدا وأنت سالكٌ سبيلَ المعتدين ، فان ديَّان يوم الدين إنما يَدِينُ العبادَ بأعمالهم ، ولا يدينُهم بمنازلهم ، وقد حذَّرك الله فاحذر ، فانك لم تُخلقْ عبثاً ، ولن تُتركَ سُدًى ، وإن الله سائلُك عما أنت فيه ، وعما عمِلت به ، فانظر ما الجواب ؟ واعلم أنه لن تزولَ غدا قدما عبد بين يدى الله تبارك وتعالى إلا من بعدِ المسئلة فقد قال ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع : عن علمِه ماعمل فيه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن مالِه من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسدِه فيم أبلاه ؟ » فأعدِدْ يا أميرَ المؤمنين للمسألة جوابها ، فإن ما عملتَ فأثْبتَّ فهو عليك غدا يُقْرأ ، فاذكر كشفَ قِناعك فيما بينك وبين الله فى مجمع الاشهاد . وإنى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله ، ورعايةِ ما استرعاك الله ، وأن لا تنظرَ فى ذلك إلا إليه وله ، فانك إن لا تفعلْ تتوعَّر عليك سهولةُ الهدى ، وتعمى فى عينك ، وتتعفَّى رسُومه ، ويضيق عليك رَحْبُهُ ، وتنكرُ منه ما تعرف ، وتعرِفُ منه ما تنكر ، فخاصمْ نَفسك خصومة من يريد الفَلَج لها لا عليها ، فان الراعيَ المضيِّع يَضْمَنُ ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة باذن الله ، وأورده أماكن

الحياة والنجاة ، فاذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرعَ ، وبه أضرّ ، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك ، ووفاه الله أضعاف ما وفّى له . فاحذر أن تُضيعَ رعيتَك فيستوفِيَ ربُّها حقَّها منك ، ويُضيعكَ ـ بما أضعت ـ أجرَكَ . وإنما يُدْعَمُ البنيانُ قبل أن ينهدم . وإنما لكَ من عملِك ما عملتَ فيمن ولاّكَ الله أمره ، وعليك ماضيّعت منه ، فلا تنس القيام بأمر مَن ولاّك الله أمرَه ، فلست تُنسى ، ولا تَغْفُل عنهم وعما يصلحهم ، فليس يغفل عنك . ولا يُضيع حظَّك من هذه الدنيا فى هذه الأيام والليالى كثرةَ تحريك لسانِك في نفسِك بذكر الله تسبيحا وتهليلا وتحميدا ، والصلاة على رسوله ﷺ نبيِّ الرحمة ، وإمامِ الهدى ﷺ وإن الله بمَنّه ورحمتِه وعفوه جعل ولاةَ الأمر خلفاء فى أرضِه ، وجعل لهم نورا يُضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ماالتبه من الحقوق عليهم . وإضاءةُ نورِ وُلاةِ الأمر إقامةُ الحدود ، وردُّ الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البيّن ، وإحياء السنن التى سنّها القومُ الصالحون أعظم موقعاً ، فإن إحياء السنن من الخير الذى يحيا ولا يموت . وجَوْرُ الراعى هلاكٌ للرعية ، واستعانتُه بغيرِ أهلِ الثقة والخير هلاكٌ للعامة ، فاستتمَّ ما آتاك الله ياأمير المؤمنين من النعم بحسنِ مجاورتها ، والتمس الزيادةَ فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقولُ فى كتابِه العزيز : « لئن شكرتم لأزيدنّكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . وليس شىء أحبّ إلى الله من الاصلاح ، ولا أبغضَ إليه من الفساد . والعملُ بالمعاصى كفرُ النعم ، وقلّ مَنْ كفر مِنْ قوم قط النعمةَ ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سُلبوا عزّهم ، وسلط الله عليهم عدوهم . وإنى أسأل اللهَ يا أميرَ المؤمنين الذى مَنّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك فى شىء من أمرك إلى نفسِك ، وأن يتولى منك ماتولى من أوليائِه وأحبائه ، فإنه ولىّ ذلك والمرغوبُ إليه فيه

وقد كتبتُ لك ماأمرتَ به وشرحتُه لك و بينتُه فتفقهْه وتدبرْه وردِّدْ قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت لك فى ذلك ، ولم آلك والمسلمين نُصْحاً ، ابتغاء

وجهِ الله وثوابه ، وخوفَ عقابه وإني لأرجو ـ إن عملتَ بما فيه من البيان ـ أن يوفِّرَ اللهُ لكَ خراجَك من غير ظلمِ مسلمٍ ولا معاهَد ، ويُصْلِح لك رعيتَك فإن صلاحَهم باقامة الحدودِ عليهم ، ورفعِ الظلمِ عنهم ، والتظالمِ فيما اشتبه من الحقوق عليهم . وكتبتُ لك أحاديثَ حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ماسألتَ عنه ، مما تريد العملَ به إن شاء الله . فوفَّقك الله لما يرضيه عنك ، وأصلح بك . وعلى يديك .

ثم ذكر عدةَ أحاديث وآثارٍ من بينها ما حدثه به إسماعيلُ بن أبي خالد عن زبيد بن الحارث قال : لما حضرتْ الوفاةُ أبا بكر رضى الله عنه أرسل إلى عمر يستخلفه ، فقال الناس : أتَخْلُفُ علينا فظاغليظا لو قد ملكنا كان أفظَّ وأغلظ ؟ فما ذا تقول لربك إذا لقيته ، وقد استخلفت علينا عمر رضى الله عنه ؟ قال : أتُخَوِّفوني بربي ؟ أقول : اللهم أمَّرْتُ عليهم خير أهلك . ثم أرسل إلى عمر فقال : إني أوصيك بوصية إن حفظتها لم يكن شئ أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعتها لم يكن شئ أبغض إليك من الموت ولن تُعْجِزَه . إن لله عليك حقا في الليل لا يَقْبَلُه في النهار ، وحقا في النهار لا يقبله في الليل ، وأنها لا تُقبَلُ نافلةٌ حتى تُؤَدَّى الفريضة ، وإنما خفَّت موازينُ من خفت موازينُه يومَ القيامه باتباعِهم الباطلَ في الدُّنيا وخِفَّتِه عليهم ، وحقٌّ لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الباطلُ أن يكون خفيفا ، وإنما ثقلت موازينُ من ثَقُلَتْ موازينُه يوم القيامة باتباعِهم الحق في الدنيا وثِقَلِه عليهم ، وحق لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . فإن أنت حفِظت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أحبَّ إليكَ من الموت ، ولا بدَّ لك منه . وإن أنت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغضَ إليك من الموت ، ولن تُعْجِزَه ـ وقال موسى بن عقبة : قالت أسماء بنت عميس : وقال له : يا ابن الخطاب أني إنما استخلفتك نظرا لما خلفتُ ورائي وقد صحبت رسول الله ﷺ فرأيت من أثَرَتِه أنفسَنا على نفسِه ، وأهلَنا على أهلِه حتى إن كنا لنظل نُهْدِي إلى أهله من

فضولِ ما يأتينا عنه ، وقد صحبتَنى فرأيتَنى إنما اتبعتُ سبيلَ من كان قبلى : والله ما نمت فحُمت ولا توهَّمت فسهوت ، وإنى لعلى السبيل ما زغتُ . وإن أول ما أحذرك يا عمرُ نفسُك ، إن لكل نفسٍ شهوةً فإذا أعطيتها تمادتْ فى غيرها . واحذرْ هؤلاء النفرَ من أصحاب رسولِ الله ﷺ الذين قد انتفخت أجوافُهم ، وطمحت أبصارهم ، وأحبَّ كلُّ امرئٍ منهم لنفسهِ وإن لهم لحيرةً عند زلَّةِ واحد منهم ، فإياك أن تكونَه . واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفتَ الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك ، هذه وصيتى وأقرأ عليك السلام .

ومن بين ماذكره أبو يوسف ما حدَّث به عن عبدِ الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكرٍ رضى اللهُ عنهُ فقال : أما بعد فانى أوصيكم بتقوى اللهِ وأن تُثْنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبةَ بالرهبة ، وتجمعوا الإلحافَ بالمسألة ، فان الله تعالى أثنى على زكريَّا وأهلِ بيته فقال تعالى : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين » ثم اعلموا عبادَ الله أن الله تعالى قد ارتهن بحقه أنفسَكم ، وأخذ على ذلك مواثيقَكم ، واشترى منكم القليلَ الفانىَ بالكثير الباقى وهذا كتابُ الله فيكم لا تَفْنَى عجائبُه ، ولا يُطْفأُ نورُه ، فصدِّقوا بقولِه ، واستنصحوا كتابَه ، واستبصِروا منه ليوم الظلمة ، فانَّما خُلِقْتُم للعبادة ، ووُكِلَ بكم الكرامُ الكاتبون ، يعلمون ما تفعلون ، ثم اعلموا عباد الله أنكم تَغْدُون وتروحون فى أجل قد غُيِّبَ عنكم علمُهُ ، فان استطعتم أن تنقضىَ الآجال وأنتم فى عمل لله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا فى ذلك مُهَلَ آجالكم قبل أن تنقضى فيردَّكم إلى أسوإِ أعمالكم ، فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم ، ونَسُوا أنفسَهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم ، فالوَحَا الوَحَا (١) النَّجَا النَّجَا ، فان وراءكم طالبا حثيثا أمره سريع

(١) الوحا العجلة والاسراع